

ابن مقانا الأشبوني
الشاعر الفلاح

د. يوسف نكادي



مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين الثقافية





ردمك: 5 - 10 - 704 - 9921 - 978

رقم الإيداع: 2019 - 0285

مؤسسة عبدالعزيز سعود البابطين الثقافية

هـاتـف: 22415172 965 +

فاكس: 22455039 965 +

بريد إلكتروني: **info@albabtaincf.org**



تصميم الغلاف: محمد العلي

الطبعة الأولى

صدرت بمناسبة إقامة الموسم الثاني عشر

لمهرجان ربيع الشعر العربي – مارس 2019

الكويت

2 0 1 9



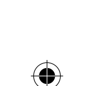


التصدير

اهتمامنا بالتراث الثقافي الأندلسي بمختلف مجالاته الفنية والأدبية والعلمية ليس وليد اليوم، وإنما بدأ منذ فترة طويلة توَّجتها مؤسسة عبدالعزيز سعود البابطين الثقافية بعدد من الفعاليات والأنشطة وإصدار الكتب والمطبوعات العديدة، ومن ذلك إقامة دورة مميزة في عام 2004 حملت اسم الشاعر الأندلسي أحمد ابن زيدون حضرها المئات من قادة الرأي والمثقفين والشعراء والأكاديميين والإعلاميين في وطننا العربي وأوروبا وأمريكا.

وقد قامت المؤسسة في صباح أحد أيام الدورة بتنظيم جولة سياحية لضيوفها ومدعويها، شملت معالم الإقليم ليطلعوا على ما بقي من هذه المعالم التي سوف تظل شاهدة على عظمة البناء الحضاري وروعته في مختلف الميادين في هذه المنطقة الشاسعة التي شيدت في ظلال الحكم العربي على امتداد ثمانية قرون في شبه جزيرة أيبريا.

ومنعًا لما قد يتبادر إلى ذهن البعض من أن تاريخ الأندلس قد أشبع بحثًا ولم يبق شيء يقدم، وتأكيدًا على أن هناك الكثير من المعلومات التي ما زالت خبيئة في خزائن محفوظات المكتبات، فقد قمنا بالإعلان عن جائزة سنوية باسم «جائزة عبدالعزيز سعود البابطين العالمية للدراسات التاريخية والثقافية في الأندلس»، لأفضل بحث يتناول جانبًا أو أكثر من الجوانب المتعلقة بالتاريخ والثقافة العربية الإسلامية في الأندلس.





وقد فاز بهذه الجائزة في السنوات الماضية عدد من الباحثين كشفوا في أبحاثهم عن دور القرى الأندلسية في الإسهام الحضاري الإنساني في تلك الحقبة، ومن هذه الأبحاث بحث بعنوان «علماء الدين والشطار: سهوب مدينة إستتجة والمناطق المحيطة بها في الأندلس»، وبحث آخر بعنوان «الميقات والمساحة والحساب.. تدريس الرياضيات بمساعدة الآلات الفلكية».. وغيرها.

ولقد كشفت هذه الدراسات نهضة ثقافية شاملة وواسعة في جميع الاتجاهات في الأدب والشعر والعمارة والطب والتاريخ والموسيقى.. ففي الشعر برز مئات الشعراء الذين نظموا في الأغراض الشعرية المعروفة وابتكروا ألوانًا جديدة أخرى ومن هؤلاء الشعراء؛ الشاعر البلنسي والتندي وأبوجعفر بن سعيد وابن زيدون وابن الأبار وولادة بنت المستكفي وحفصة الركونية وابن فرقون والبسطي.

وهناك العديد من الحكام والوزراء الشعراء مثل ابن الجياب وابن الخطيب وابن زمرك.. ولكن تناولت بعض كتب الأدب والتراجم عددًا من الشعراء هم أقل شهرة ولكنهم ليسوا أقلّ أهمية من غيرهم، إلا أنهم لم يحظوا بالاهتمام الكافي كغيرهم، منهم أبوحيان الغرناطي وابن الحاج النميري وابن خاتمة الذي أكثر من شعر الحدائق والزهور، وابن ليون صاحب رسالة مهمة عن الزراعة. وبرز في ملقة شعراء مهمون مثل مالك بن المرحل وفي رندة برز أبوالبقاء الرندي صاحب القصيدة الشهيرة عن ضياع المدن.

ومن الشعراء الذين لم ينالوا حظًّا من الشهرة والانتشار الشاعر أبوزيد عبدالرحمن بن مقانا الأشبوني أحد شعراء عصر الطوائف، في القرن الخامس الهجري، الذي يذكر أنه كان حيًّا سنة (460 هجرية) في فترة حكم المعتد بالله آخر خلفاء بني أمية في قرطبة.



وأود أن أشكر الدكتور يوسف نكادي الذي أعدّ هذا الكتاب، متناولاً فيه اهتمامات هذا الشاعر وعمله في مجال الزراعة وتسليطه الضوء على قصيدته «العينية» التي تناول فيها ذكر مزروعاته وطرق الفلاحة التي كانت معروفة آنذاك، وحبه لما تنتجه الأرض، والقصيدة هي محور الكتاب ومادته.

وهذه القصيدة «العينية» التي وقف عليها الباحث تبين علاقة عامة فلاحي الأندلس بالنشاط الزراعي، كما تقدم معلومات عن البساتين الخاصة التي كانت منتشرة، ونظام استثمارها والأساليب التي كانت متبعة في العمل الزراعي، وأبان فيها – أيضًا – عن المحاصيل الزراعية التي كانت تجود بها تلك البساتين. ونرى أن هذا الكتاب ذو فائدة كبيرة للباحثين والمهتمين بالشعر الأندلسي في حقبة القرن الخامس الهجري على وجه الخصوص.

والله ولي التوفيق،،

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت في 2 جمادى الآخرة 1440هـ

الموافق 7 فبراير 2019م

****











توطئة

تعود صلتنا بالشاعر ابن مقانا الأشبوني الى أكثر من عشرين سنة خلت، حين كنا بصدد إنجاز أطروحة جامعية لنيل دكتوراه الدولة حول «الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري».

وقد استفدنا كثيرًا من قصيدة له تتألف من تسعة أبيات، أوردها ابن بسام الشنتريني في كتاب «الذخيرة». فراودتنا منذ تلك الفترة فكرة تخصيص بحث مستقل للشاعر ولتلك القصيدة.

وأنجزنا فعلًا – بعد مرور بضع سنوات – مقالًا مطولًا حولهما تحت عنوان: «الزراعة في أندلس القرن الخامس الهجري من خلال نص شعري لابن مقانا الأشبوني». نشرناه على أعمدة أحد المواقع الالكترونية. ولم تقم إدارة ذلك الموقع، مع الأسف، بنشر النص الكامل للموضوع.

وها هي الظروف قد سمحت لنا اليوم بالعودة لذلك المقال. فأعدنا فيه النظر شكلًا ومضمونًا.

وانتهى أمره في هيئة كتيب نسعى من خلاله تعريف المهتمين بالتراث الأندلسي، وعموم القراء، بشاعر لم ينل حظًّا وافرًا من الشهرة والجاه والثراء كعدد من شعراء عصره.

فانسحب من عالم الشعر والشعراء وهو شيخ. وانكبَّ على عمارة الأرض لكسب قوته.



ووجدنا في مؤسسة عبدالعزيز سعود البابطين الثقافية محتضنًا لهذه الرغبة، فتفضل المسؤولون عنها بطبع هذا الكتيب ونشره بين عموم قراء العربية.

وليس ذلك غريبًا عنهم، فقد عرفوا منذ عقود خلت برعايتهم للشعر والشعراء وللمهتمين بالبحث في قضايا الشعر العربي، حتى أضحت مؤسسة عبدالعزيز سعود البابطين الثقافية اليوم رائدة المؤسسات والهيئات في هذا المضمار.

فلا يسعنا إلا التعبير عن جزيل شكرنا وامتناننا للمسؤولين عن هذه المؤسسة، وعلى رأسهم سعادة الشاعر الكبير، وراعي الشعر، الدكتور عبدالعزيز سعود البابطين الذي أولى اهتمامًا بهذا المؤلف وقام بتصديره شخصيًّا.

فنرجو بهذا العمل المتواضع أن نحقق المراد.

والله ولي التوفيق،،

يوسف نكادي

وجدة حاضرة زيري بن عطية

في 21 جمادى الأولى 1440هـ

الموافق 27 يناير 2018م





مقدمة

لا يختلف اثنان في القول بأن القصائد التي نظمها الشعراء العرب منذ العصر الجاهلي تمثل «ديوانًا» يمكن أن ينهل منه الباحث في التاريخ والباحث في الجغرافيا فضلًا عن الباحث في حقل الأدب. لأنها تتضمن فيضًا من المعلومات حول الإنسان والمجال.

وينطبق هذا الأمر على جميع المجالات الجغرافية التي تواجد فيها العرب منذ القدم بما في ذلك الأندلس، رغم أن تراثها الشعري يتميز بالتفاوت من حيث الوفرة والأهمية تبعًا لاختلاف الفترات التاريخية التي تنتمي إليها الدواوين والمجاميع التي يتألف منها.

وقد بات من المعروف اليوم في أوساط المهتمين بالشعر العربي عامة وبالشعر الأندلسي خاصة، بأن شعر القرن الخامس الهجري ربما يفوق وفرة وأهمية شعر القرون التي سبقته أو التي تلته. وهذا ما انتهى إليه ثلة من الباحثين المستشرقين والعرب على حد سواء.[1].

(1) يمكن العودة في هذا الشأن إلى كتاب هنري بيريس (Henri Pérès)، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسة وقيمته التوثيقية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، 1988. وكتاب جمعة شيخة، الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر، تونس، 1994، جزءان.





وللدلالة على صحة ما خلصوا إليه، يكفي تصفح دواوين ومجاميع بعض الشعراء، أمثال ابن زيدون[1] والمعتمد ابن عباد[2] وابن عمار[3] وابن الحداد[4] وابن اللبانة[5] وابن حمديس[6].

فالقصائد التي نظموها تتضمن معلومات غزيرة حول الحياة السياسية والأحداث العسكرية التي شهدتها الأندلس منذ مطلع القرن المذكور، كوقائع «الفتنة» التي اندلعت سنة 399 هجرية والتجزئة السياسية التي تلتها، وحول الحروب التي دارت رحاها بين الممالك الطائفية وسلسلة الغارات التي تعرضت لها بعضها من قبل المسيحيين. كما تتضمن تلك الدواوين والمجاميع معلومات حول الحياة الاقتصادية وحول الحياة الاجتماعية والحياة الفكرية وما إلى ذلك.

---

(1) هو أبوالوليد أحمد بن عبدالله بن غالب بن زيدون (توفي سنة 463هـ). له ديوان شعر ومجموعة رسائل حققها ونشرها عدد من الباحثين. من بينهم علي عبدالعظيم الذي نشرها تحت عنوان: ديوان ابن زيدون ورسائله شرح وتحقيق. وصدرت ضمن منشورات، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1957.

(2) هو أبوالقاسم محمد بن المعتمد بن عباد (توفي سنة 468هـ). كان أحد ملوك الطوائف، له ديوان شعر اهتم بنشره عدد من الباحثين من بينهم حامد عبدالمجيد وأحمد بدوي اللذان جمعاه وحققاه ونشراه تحت عنوان: ديوان المعتمد بن عباد ملك اشبيلية، دار الكتب المصرية، القاهرة، 2000.

(3) هو أبوبكر محمد بن عمار الأندلسي المهري. (توفي سنة 477هـ). له مجموعة شعرية نشرها مصطفى الغديري تحت عنوان: شعر محمد بن عمار الأندلسي. قراءة وتوثيق وتعليق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، 2001.

(4) هو أبوعبدالله محمد بن أحمد بن خلف. اشتهر بابن الحداد (توفي سنة 480هـ). له ديوان شعر جمعه وحققه وشرحه وقدم له يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.

(5) هو أبوبكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني، المعروف بابن اللبانة (توفي سنة 507هـ). ولد ونشأ في دانية في أحضان أسرة معوزة كانت تعولها أمه بعد وفاة أبيه. تفتقت مواهبه الشعرية منذ صباه. واستغلها في التكسب بالشعر حتى قدر له أن يلتحق بمملكة اشبيلية. فعاش في كنف المعتمد ابن عباد حتى نفيه الى أغمات. فانتقل ابن اللبانة الى ميورقة التي أقام بها حتى وفاته. اعتنى بجمع شعره محمد مجيد السعيد. ونشره تحت عنوان: ديوان ابن اللبانة الداني. مجموع شعره، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان، 2008.

(6) هو أبومحمد عبدالجبار بن أبي بكر بن حمديس (توفي سنة 527هـ). ولد بصقلية وانتقل الى الأندلس. له ديوان شعر حققه ونشره إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.





ومع ذلك، فيجب التنبيه بأن قيمة هذا التراث الشعري تختلف باختلاف الموضوع المراد البحث فيه. فهو ذو قيمة بالغة بالنسبة للباحث في موضوع ذي صلة بالتاريخ السياسي والعسكري والفكري نظرًا لوفرة وغنى المادة التي يتضمنها. ولكن قيمته أقل نسبيًّا بالنسبة لمن يود البحث في قضايا تهم الفلاحة وعمارة الأرض. وإن كانت الدواوين والمجاميع الشعرية التي يتألف منها لا تخلو من معلومات ومعطيات قيمة حول الوحدات التضاريسية والغطاء النباتي والمناخ وحول شبكة الأودية والمجاري المائية وحول الأراضي التي كانت مستثمرة وحول المنتوجات والمحاصيل الزراعية.

وإذا كان الشعراء، واضعو تلك الدواوين والمجاميع الشعرية، قد تطرقوا لمختلف المواضيع والقضايا ضمن أغراض الشعر المعروفة، فهذا أمر طبيعي. لأنهم كانوا مرهفي الإحساس.

وربما كانوا أكثر إحساسًا من المؤرخين الذين عاصروهم. ولذلك عبروا عن أحاسيسهم في نصوص منظومة. فتحدثوا عن كل شيء. بما في ذلك «الأشياء» التي تهم مجال الفلاحة وعمارة الأرض. ولأن هذه الأخيرة كانت «متغلغلة في أعماقهم»، كما يقول هنري بيريس[1]، فقد أضحت صورها بارزة في قصائدهم بغض النظر عن مواضيعها.

ولكن عددًا قليلًا جدًّا من أولئك الشعراء، تحدثوا عن تلك «الأشياء» ليس فقط لكونهم عبروا عن إحساس تجاهها. ولكن لاعتبار ثانٍ، وهو أنه كانت لهم صلة خاصة بعمارة الأرض. ومن هنا، فإننا نميز في علاقة شعراء أندلس القرن الهجري الخامس بالنشاط الزراعي بين فئتين:

(1) انظر كتابه الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، مرجع سبق ذكره، ص 180.



- شعراء واكبوا النشاط الزراعي بالقول. أي بالنظم فقط.

- وشعراء واكبوه بالقول وبالفعل أيضًا. أي تطرقوا لبعض جوانبه بالنظم. ومارسوه بالفعل. لأنهم كانوا يملكون قطع أرض.

فمارس معظمهم الزراعة بطريقة غير مباشرة على غرار جمهور من الوزراء والقضاة وأرباب الدواوين والخطط وأفراد الأرستقراطية، الذين كانوا يملكون ضياعًا. يعهدون بها لمن يقوم باستثمارها لحسابهم. بينما زاول عدد قليل من الشعراء الزراعة بطريقة مباشرة كسائر الفلاحين البسطاء. ومن بين هؤلاء أبوزيد عبدالرحمن ابن مقانا الأشبوني الذي نخصص له هذا الكتيب.

ولد وترعرع في ناحية من الأندلس كانت تعج بالشعراء. ولكن لم يُقدَّر له أن ينال حظوة كبيرة في بلاط أحد الملوك على غرار عدد من شعراء عصره. فرحل بين عدة ممالك، ثم تحول، وهو شيخ، إلى فلاح بمسقط رأسه.

سنستعرض في الصفحات الموالية لمعًا من أخباره. وسنتحدث عن ممارسته للزراعة، وعن جوانب تتصل بطبيعة النشاط الزراعي في المحيط الذي زاول به الزراعة، وفي أندلس القرن الهجري الخامس بصفة عامة من خلال إحدى قصائده.

ولكن قبل ذلك، لا بأس من تخصيص حيز للحديث عن علاقة شعراء هذه الحقبة التاريخية بالزراعة.

****





فصل تمهيدي
علاقة شعراء أندلس القرن الخامس الهجري بالنشاط الزراعي

ابتدأت عمليات فتح الأندلس كما هو معروف في رمضان من سنة 92 للهجرة. ومع حلول شهر ذي القعدة من سنة 95 هجرية، حيث بدأت رحلة عودة طارق بن زياد وموسى بن نصير الى دمشق، كانت تلك العمليات قد حققت نتائج بالغة الأهمية.

ورغم قصر المدة التي استغرقتها، فقد أفضت الى انتشار الإسلام في مجال جغرافي شاسع. لأنه وصل إلى حدود البحر المتوسط في الشمال الشرقي وإلى مقدمة أقاليم دولة البرتغال الحالية في الشمال الغربي.

وقد كانت تلك العمليات على وشك أن تجعل جميع أقاليم شبه جزيرة ايبيريا تحت راية الإسلام، لولا الأمر الصادر عن الخليفة بوقفها.

وحاول عبدالعزيز بن موسى بن نصير استكمال عمليات الفتح بعد أن استلم إدارة الأقاليم المفتوحة بتكليف من أبيه. غير أن الجهود التي بذلها خلال السنتين وبضعة أشهر التي دامتها ولايته، كانت محدودة نسبيًّا رغم نجاحه في ضم أقاليم الشمال الشرقي وأقاليم الجنوب الشرقي إلى حظيرة الإسلام.

ودون الخوض مطولا في تفاصيل أحداث هذه المرحلة الأولى من مراحل انتشار الإسلام بشبه جزيرة ايبيريا، التي توقف عندها المؤرخون القدامى والباحثون





المحدثون، لا بأس أن نقدم بين يدي القارئ نصًّا بالغ القيمة لابن القوطية[1] يسمح بتكوين فكرة عن خارطة انتشار الإسلام بشبه جزيرة ايبيريا مباشرة بعد الفتح يقول فيه: «فلما جاوز طارق وصار بعدوة الأندلس، كان أول ما افتتحه مدينة قرطاجنة، بكورة الجزيرة (...) ثم تقدم إلى أستجة، والى قرطبة، ثم إلى طليطلة، ثم إلى الفج المعروف بفج طارق، الذي منه دخل جليقية. فخرق جليقية حتى انتهى إلى أسترقة (...) وأخذ موسى في ساحل شذونة. وكان دخوله بعد طارق بسنة. وتقدم إلى شذونة، ثم إلى اشبيلية فافتتحها. ثم قصد من اشبيلية إلى لقنت، إلى الموضع المعروف بفج موسى في أول لقنت إلى ماردة (...) وتقدم فدخل جليقية من فج منسوب إليه فخرقها حيث دخلها ووافى طارقًا بأسترقة. ثم أتاهما عهد الوليد ابن عبدالملك بالانصراف فانصرفا (...) وشد موسى بن نصير حصون الأندلس واستخلف ابنه عبدالعزيز على الأندلس وأسكنه اشبيلية»[2].

شملت عمليات الفتح كما يتضح من النص أهم المراكز الحضرية التي كانت معروفة بشبه جزيرة ايبيريا بالإضافة للقرى والحصون التابعة لها بطبيعة الحال. وكانت تقيم في كل مركز تم فتحه، حامية عسكرية تؤمن السيادة عليه، بينما يتقدم الفاتحون إلى المركز الموالي. وبناء عليه، فقد انتشر الفاتحون بعد انتهاء عمليات الفتح مباشرة، ثم خلال السنوات التي أعقبتها، بالمناطق الواقعة على طول خطوط الفتح الوارد ذكرها في النص.

فقد استقر البربر في المدن الواقعة على طول الطريق التي سلكها طارق ابن زياد، مثل الجزيرة الخضراء ومالقة وإلبيرة وقرطبة وبلنسية وطليطلة. بينما فضل عدد آخر منهم الاستقرار في أحواز تلك المدن، أو في بعض المناطق الجبلية

(1) هو أبوبكر محمد بن عمر بن مزاحم. عرف بابن القوطية نسبة لأمه القوطية الأصل (توفي سنة 367هـ). كان فقيهًا حافظًا للحديث ومؤرخًا. ومن مؤلفاته كتاب تاريخ افتتاح الأندلس الذي اهتم به عدد من الباحثين. من بينهم إبراهيم الأبياري الذي حقق نسخة منه صدرت عن دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة - بيروت سنة 1989.

(2) المرجع السابق نفسه، ص ص 35 - 36.





المشابهة لمواطن استقراهم في العدوة المغربية. أما العرب، فاستقر معظمهم في الحواضر الواقعة على طول الطريق الذي سلكه موسى بن نصير، مثل مدينة اشبيلية وماردة ووشقة وسرقسطة وطرطوشة[1]. وقد حبذ بعضهم الاستقرار في أحواز المدن مثل شرف اشبيلية أو فحص البلوط بنواحي قرطبة.

واتسع مجال الاستقرار عند نهاية عصر الولاة. وأصبح يشمل أغلب الحواضر الأيبيرية التي كانت تضم أكبر التجمعات البشرية خلال فترة الحكم القوطي، بالإضافة إلى عدد من القرى الريفية. وقد خضع الاستقرار منذ البداية، لعامل الغلبة العددية أحيانًا قليلة، ولعامل الصدفة في معظم الأحيان كما يستشف من نص للمقري يذكر فيه أن العرب والبربر كانوا كلما مَرَّ قوم منهم بموضع استحسنوه، حطّوا به ونزلوه قاطنين. فاتسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس[2].

وبما أن عددًا من العرب ومن البربر، ظلوا يتوافدون على الأندلس، فرادى أو جماعات، خلال عصري الإمارة والخلافة، فقد أفضت هجراتهم، إلى اتساع رقعة الإسلام. وخاصة بعد أن ضاقت الحواضر القديمة بسكانها، فاضطر القائمون بالأمر، منذ عصر الإمارة، إلى استحداث مدن أخرى مثل بجانة وشنترين وبطليوس.

وانطلاقًا مما تقدم، يتضح بأن مواطن استقرار الفاتحين والسكان المحليين في الأندلس شملت الحواضر والأرياف. وتبعًا لذلك، فإن مجال تفاعل الأحداث توزعته الحواضر والأرياف على السواء، خلافًا لما كان عليه الأمر، خلال الحقبة ذاتها بغرب أوربا. حيث كانت الأرياف تمثل الإطار الرئيسي الذي تفاعلت فيه الأحداث التي وقعت منذ القرن الخامس للميلاد حتى مطلع القرن الحادي عشر، حين بدأت الحواضر تستعيد جانبًا من الهيمنة التي فقدتها منذ أزمة القرن الثالث للميلاد.

(1) لا يدخل ضمن اهتمامنا في هذا الحيز الحديث بإسهاب عن مراكز استقرار الفاتحين. ولمزيد من التفاصيل، يمكن العودة إلى كتاب الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس لعبدالواحد ذنون طه، منشورات دار المدار الإسلامي، بيروت، 2004، ص ص 173 - 284.

(2) أبوالعباس أحمد بن محمد المقري التلمساني (توفي سنة 1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، المجلد الأول، ص 276.





وتفيد بعض كتب الحوليات[1] وكتب الجغرافيا[2]، أن جميع حواضر وأرياف شبه جزيرة ايبيريا أضحت موزعة بعد الفتح والاستقرار إلى ثلاثة جهات كبرى هي: الموسطة والشرق والغرب. وكانت كل جهة موزعة بدورها إلى مجموعة كور. كانت تتألف كل واحدة منها من حواضر كبرى وأخرى متوسطة وأخرى صغرى وعدد كبير من قرى الأرياف.

وقد اتخذت اشبيلية بعد الفتح الإسلامي عاصمة لجميع الجهات باعتبارها مركز إقامة بالنسبة لممثلي السلطة المركزية في المشرق. ثم حلت محلها قرطبة. وحين انفرطت عرى الجماعة، في أعقاب فتنة 400 - 422 هجرية، أصبحت كل كورة من الكور بمثابة كيان سياسي. تمثل الحاضرة الكبرى قاعدة ملكه. كما أضحت كل واحدة من تلك القواعد مركز إشعاع فكري وثقافي.

وإذا كان دور الحواضر قد تبلور أكثر على المستويين السياسي والفكري خلال عصر الكيانات الطائفية، فعلى المستوى الاقتصادي، لم تستطع الحواضر إقصاء الأرياف التي ظلت تمثل منذ الفتح الفضاء الذي احتضن أبرز الأنشطة الاقتصادية، ونعني هنا الزراعة.

وفي ضوء هذه الإشارة، نستطيع القول، بأن مجال الزراعة في الأندلس كان «مخضرمًا» ريفيًّا - حضريًّا. كما أن المجتمع الذي كان يمارس ذلك النشاط الاقتصادي جمع بين خاصيات «البداوة»[3] والتحضر.

---

(1) من بينها على سبيل المثال كتاب المقتبس لأبي مروان حيان بن خلف القرطبي (توفي سنة 469هـ)، القطعة الخاصة بعهد الخليفة عبدالرحمن الناصر، تحقيق بيدرو شالميتا وفدريكو كورينطي، المعهد الاسباني العربي للثقافة وكلية آداب الرباط، مدريد، 1979.

(2) من بينها كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لأبي عبدالله محمد بن أحمد المقدسي (توفي سنة 380)، تحقيق دو خوج، مطبوعات بريل، ليدن، 1906.

(3) خلافًا لما توحي به كلمة «بدو»، التي تستعمل عادة للدلالة على المجموعات البشرية غير المستقرة والدائمة الترحال، فإننا نستعملها هنا للدلالة على سكان البوادي أو الأرياف. ونعني بالحضر سكان الحواضر أو المدن.





فالاستغلاليات، أي قطع الأرض المستثمرة كانت تتوزع بين جنات وبساتين وحقول وفدادين وضياع ومجاشر[1] ومنيات[2] ومستخلصات[3]. بعضها كان يقع داخل أسوار كل مركز حضري كالجنات والبساتين. وبعضها كان يقع في ضواحي المدن كالمنيات. وبعضها كان يقع في الأرياف طبعًا[4].

أما الفئات التي كانت تستثمرها، فكانت موزعة هي الأخرى بين فلاحين صغار يملكون استغلاليات داخل محيط المدينة أو خارجها، ومزارعين (لا يملكون سوى مجهودهم العضلي يعملون عند ملاكين آخرين) ومالكين متوسطين أو كبار.

كان معظمهم يقيم في المدن. وكانوا يملكون استغلاليات في الأرياف يستثمرها لحسابهم مزارعون مقابل كميات من الإنتاج تحددها عقود تعرف بعقود المزارعة أو المغارسة (تبعا لنوعية العمل الذي قد يكون زراعة كميات من الحبوب أو غراسة أنواع من الأشجار المثمرة)[5].

---

(1)مجاشر مفردها مجشر. وهي قطعة أرض شاسعة. تغطي الأشجار معظم مساحتها. انظر مادة «جشر» في لسان العرب لأبي الفضل محمد بن مكرم بن علي ابن منظور الأنصاري المتوفى سنة 711 هجرية، طبعة دار صادر، بيروت، 1999.

(2)منيات أو منى. ومفردها منية (بضمة فوق الميم). وهي قطعة أرض فسيحة تنتسب الى شخص (المنية العامرية، المنية الصمادحية) أو الى موضع (منية الرصافة، منية الناعورة). كان بعضها يقع داخل أسوار المدن. وكان بعضها الآخر يقع خارج الأسوار. كانت الأشجار المثمرة تكسو معظم مساحتها. وكانت توجد بها فضاءات خاصة بأنواع الورود والزهور. وقد تشتمل على ساحة خاصة بألعاب الخيول ومجلس مبلط بالرخام.

(3)هي الأراضي الواقعة في حوزة الملوك والأمراء كتلك التي كانت في حوزة مبارك ومظفر صاحبي بلنسية. والتي يذكر عنها ابن بسام نقلاً عن ابن حيان، أن مبارك ومظفر كانا يضغطان على أهل بعض القرى فيغادرونها مكرهين. «فيتخذا ما جلا عنه أهل القرى ضياعًا مستخلصة». انظر كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني المتوفى سنة 542 هجرية، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1978، القسم الثالث، المجلد الأول، ص. 19.

(4) انظر على سبيل المثال المعلومات الواردة في كتب الجغرافيا، أو تلك الواردة في مواضع متفرقة من كتاب ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام لأبي الأصبع عيسى بن عبداله بن سهل الأسدي (توفي سنة 486هـ)، تحقيق يحي مراد، دار الحديث، القاهرة، 2007.

(5) يمكن العودة في هذا الشأن الى كتاب المحلى بالآثار لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (توفي سنة 456هـ)، تحقيق عبدالغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، الجزء السابع، ص 42 وما يليها.



وما ذكرناه في هذه الفقرات عن السياق الذي كان يمارس فيه النشاط الزراعي، وعن طبيعة المجال الذي كان يتم فيه العمل الزراعي وعن الاستغلاليات وعن الفئات التي كانت تستثمرها، استقيناه من مصنفات المؤرخين (الإخباريين) والجغرافيين وثلة من الفقهاء.

وسنستعرض فيضًا من المعلومات والمعطيات في الصفحات الموالية انطلاقًا من مصنفات أخرى. بعضها من وضع علماء الفلاحة وأخرى من وضع شعراء.

ومعنى ذلك أن أهل القلم واكبوا النشاط الزراعي في الأندلس منذ الفتح. ولعل أبرز تجليات تلك المواكبة تمثلت في إشراف ثلة من الفقهاء على عملية تقسيم الأراضي المفتوحة التي قام بها موسى بن نصير ونقل حيثياتها محمد بن مزين[1].

وقد واكب ذلك النشاط طائفة من أهل القلم خلال القرن الخامس الهجري. وكانت مواكبتهم له مختلفة ومتفاوتة بطبيعة الحال.



فقد واكب علماء الفلاحة، كابن وافد[2] وابن بصال[3]، النشاط الزراعي بالعمل وبالنظر.

(1) انظر رواية ابن مزين المتعلقة بتلك العملية والشيوخ الذين حضروا عملية تقسيم الغنائم والأرض في كتاب رحلة الوزير في افتكاك الأسير لمحمد الغساني الأندلسي، حررها وقدم لها نوري الجراح، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، 2002، ص 136 وما يليها.

(2) هو أبوالمطرف عبدالرحمن بن محمد بن وافد (توفي سنة 467هـ). ولد ونشأ بطليطلة. اشتهر بالتأليف في مجالي الطب والفلاحة. وربط بينهما من منطلق نظرية تبناها تقول بالتداوي عن طريق التغذية. من مؤلفاته نص في الفلاحة منشور بالاسبانية انطلاقًا من نسخة قشتالية. وكتاب في الأدوية منشور بالعربية. وهما:

Tratado de agricultura, traduccion del castellana por José Maria Millas - Vallicrossa, al - Andalus, vol. VIII, 1943, pp. 281 - 332.

كتاب الأدوية المفردة، دراسة وتحقيق وترجمة لويسا فرناندا أغيري دي كارثر، منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية والوكالة الاسبانية للتعاون الدولي، مدريد، 1995 – 1996، أربعة أجزاء.

(3) هو أبوعبدالله محمد بن إبراهيم بن بصال (توفي حوالي سنة 498هـ). ولد ونشأ بطليطلة. وبها اشتهر كعالم نبات وفلاحة. واختاره المأمون بن ذي النون ملك طليطلة مشرفًا على الاستغلاليات التي كان يملكها.. له مصنف في الفلاحة يعرف بكتاب الفلاحة.. حققه وترجمه وعلق عليه خوسي مياس – بييكروسا ومحمد عزيمان، وصدر بتطوان سنة 1955ضمن منشورات معهد مولاي الحسن.





إذ عهد ملوك الطوائف لبعضهم بقطع أرض اتخذوها حقولًا للتجارب[1]. وفيها كانوا يختبرون فرضياتهم فيما يتعلق بنوعية التربة ومدى ملائمة كل نوع منها لفصيلة من النباتات. وكذلك ما يتعلق بطريقة تحسين مردوديتها وما الى ذلك. ووضعوا خلاصات تجاربهم ومعارفهم في عدة مؤلفات نثرية. اشتهرت كلها تقريبًا باسم «كتب الفلاحة». وشد عنهم أحد المتأخرين. فدون خلاصات تجاربه ومعارفه في أرجوزة[2].

وواكب الفقهاء، كابن حزم[3] وابن سهل[4] وابن مغيث الطليطلي[5]، النشاط الزراعي بأن اهتم بعضهم بالنظر في الأحكام والمبادئ الفقهية الواجب مراعاتها في استثمار الاستغلاليات. والنظر في طريقة صياغة العقود التي تحدد العلاقة بين طرفي عملية الاستثمار: مالك الاستغلالية والمزارع. أو المالك والمغارس، أو المالك والمساقي. بينما انبرى آخرون للبث في النوازل والمسائل المتعلقة بحيازة الأرض والنزاعات التي كانت تحدث بسبب استغلال مياه السقي وقضايا الاستحواذ أو غصب ممتلكات الغير.

---

(1) انظر عادل محمد الحجاج، موسوعة أعلام العرب في علوم الحيوان والنبات، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2005، ص 51 وما يليها.

(2) نقصد هنا نصًّا في الفلاحة وضعه أبوعثمان سعد بن أحمد بن إبراهيم بن ليون التجيبي. وهو أحد علماء النبات والفلاحة الأندلسيين. نشأ بألمرية وتوفي بها في طاعون 750 هجرية. اشتهر بنظم الشعر وتأليف أو تلخيص مؤلفات في مجال الفقه. والنص الذي وضعه في الفلاحة، حرره في شكل أرجوزة تعرف بكتاب إبداء الملاحة وإنهاء الرجاحة في أصول صناعة الفلاحة. وقد حقق الأرجوزة وترجمها خواكينا اكواراس ايبانييس. وصدرت بغرناطة سنة 1975 في نصين عربي واسباني ضمن منشورات مؤسسة تراث قصر الحمراء وجنة العريف.

(3) عرفنا به في هامش سابق وأحلنا على أحد مؤلفاته.

(4) عرفنا به هو الآخر في هامش سابق وأحلنا على كتابه ديوان الأحكام الكبرى.

(5) هو أبوجعفر أحمد بن محمد بن مغيث الطيطلي (توفي سنة 478هـ). أحد فقهاء الأندلس البارزين في علم التوثيق والشروط وصياغة العقود. ألف فيه كتابًا يعرف بالمقنع في علم الشروط،، تقديم وتحقيق فرانسيسكو خابيير أ كيري صدابا، منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1994.



وواكب الجغرافيون، كالبكري[1] والعذري[2]، النشاط الزراعي بأن خصصوا جانبًا مهما من مصنفاتهم للحديث عن الوحدات التضاريسية التي تتشكل منها شبه جزيرة أيبيريا، عامة والأندلس بشكل خاص. كما تحدثوا عن طبيعة المناخ السائد وعن الشبكة الهيدروغرافية وأشكال الحيازات، وأنواع المحاصيل الزراعية والمناطق التي كانت تجود بها.

وتمثلت مواكبة الإخباريين، وأبرزهم ابن حيان[3]، في كونهم توقفوا مليًّا عند أحداث القرن الخامس الهجري. فخصصوا صفحات مطولة للحديث عن الأحداث السياسية والعسكرية، من قبيل فتنة سنوات 400 - 422 هجرية والحروب بين الممالك الطائفية وفصول حرب الاسترداد. وبينوا وقعها الكبير على النشاط الزراعي وعلى المنتجين المباشرين[4].

ولم يفت أولئك الإخباريين الحديث عن سلسلة من الكوارث الطبيعية شهدها القرن الخامس الهجري وأثرت في النشاط الزراعي. من بينها موجات القحط

(1) هو أبوعبيدالله عبدالله بن عبدالعزيز البكري (توفي سنة 487هـ). اشتهر بكتاب المسالك والممالك الذي اهتم بتحقيقه ونشره عدة باحثين من بينهم أدريان فان ليوڤن وأندري فيري، اللذان حققا نسخة منه صدرت عن الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، تونس، 1992، جزءان.

(2) هو أبوالعباس أحمد بن عمر بن أنس العذري الدلائي (توفي سنة 478هـ). وضع كتابًا في الجغرافية يعرف بترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبدالعزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1965.

(3) هو أبومروان حيان بن خلف الأموي القرطبي. وقد سبق أن عرفنا به. اشتهر بكونه شيخ مؤرخي الأندلس. وضع عدة مصنفات في التاريخ أشهرها كتاب المقتبس الذي تم تحقيقه من قبل عدة محققين نشروه في شكل قطع كل واحدة منها تهم فترة معينة من تاريخ الأندلس حتى منتصف القرن الخامس الهجري. كما وضع مصنفات أخرى ضاعت ولم تبق منها سوى شذرات ونقول في مؤلفات المؤرخين المتأخرين وبعض الأدباء كابن بسام الشنتريني صاحب كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.

(4) سنتحدث عن أبرز هذه الأحداث وعن وقعها على العمل الزراعي والإنتاج في الموضع المناسب انطلاقًا من نماذج من كتب الإخباريات وكذلك انطلاقًا من إشارات ابن مقانا اليها. وانطلاقًا أيضًا من بعض النماذج الشعرية.





والجفاف وبعض السيول وبعض حالات اجتياح الجراد[1]. وفضلًا عن هذا وذاك، تطرقوا، في سياق عرض الأحداث، لأوضاع الفلاحين ومعاناتهم[2].

ولم يتقاعس شعراء القرن الخامس الهجري عن مواكبة النشاط الزراعي بالنظم، أو بالنظم والعمل كما أشرنا الى ذلك فيما مضى.

ولا بأس من الإشارة الى أن أولئك الشعراء، كانوا موزعين الى أربع فئات تبعًا لموقعهم ومكانتهم: فئة الشعراء الملوك وفئة شعراء البلاطات وفئة شعراء «المرتبات» وفئة الشعراء الجوالين.

وبناء عليه، سنعرض بإيجاز لعلاقة كل فئة بالنشاط الزراعي.

أولًا: علاقة الشعراء الملوك بالنشاط الزراعي:

كان ملوك الطوائف يمارسون السلطة، كما كانوا يملكون منيات ومستخلصات وينظمون الشعر، ومن أشهرهم المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية وأبوبكر المظفر صاحب بطليوس والمعتصم بن صمادح صاحب ألمرية ومنذر بن يحي التجيبي صاحب سرقسطة.

كانت لهم صلة مزدوجة بالنشاط الزراعي. تمثل مظهرها الأول في كونهم نظموا قصائد كثيرة خلال خروجهم إلى المروج والمتنزهات أو خلال جلسات الشعر التي كانوا يعقدونها في منياتهم. وتغنوا في تلك القصائد بالرياض والمروج والجداول والورود. وتمثل مظهرها الثاني في كونهم كانوا يملكون منيات اتخذوها فضاءات للراحة والاستجمام. ومستخلصات وأحقال، كانوا يستثمرونها ويحصلون منها على إيرادات تمثل جانبًا من مداخيلهم.

---

(1) سنعرض لنماذج من هده الظواهر في المواضع المناسبة. وسنورد إشارات ابن مقانا لها بالإضافة إلى بعض الشواهد الشعرية الأخرى.

(2) سنورد نماذج شعرية في الموضوع.



يذكر العذري أن المعتصم بن صمادح شيد منية «الصمادحية» وبساتين أخرى ملحقة بها في ضواحي ألمرية. «(...) وجلب إليها من جميع الثمار الغريبة (...) مثل الموز وقصب السكر وأنواع سائر الثمرات. فأصبح فيها من كل شيء غريب مما لا يقدر المرء على وصفه»[1].

ويفيدنا أبوالخير الاشبيلي بدوره أن المأمون بن ذي النون شيد منية بطليطلة. وجلب إليها أنواعًا من المشاتل. من بينها صنف يسمى «الاهليلج الهندي». جلبه من أقصى الهند. وكان ينمو على شكل أشجار تجود «بثمار عزيزة الوجود» في الأندلس[2].

وقد تنافس جميع ملوك الطوائف في تشييد منيات جعلوها بمثابة جنات فوق الأرض.

ويؤكد الفتح بن خاقان[3] ما نذهب اليه حين يذكر، أنه تلقى يومًا دعوة لزيارة منية المنصور عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن أبي عامر. وحين دخلها وجدها: «(...) في منتهى الجمال (...) وبوسطها مجلس قد تفتحت للروض أبوابه. وتوشحت بالأزر المذهبية أثوابه. يخترقه جدول كالحسام المسلول (...) وضفاته بالأدواح محفوفة. وهو يروق كالخريدة المزفوفة. وفيه علي بن أحمد أحد شعرائها (...)

---

(1) انظر ترصيع الأخبار، مصدر سبق ذكره، ص 85.

(2) أبوالخير الاشبيلي (توفي في نهاية القرن الخامس الهجري)، عمدة الطبيب في معرفة النبات، تقديم وتحقيق محمد العربي الخطابي، منشورات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط 1990، الجزء الأول، ص 77.

(3) هو أبونصر الفتح بن محمد بن عبدالله بن خاقان (توفي سنة 529هـ). أحد أقطاب الأدب في الأندلس في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري. وضع مؤلفين مشهورين هما: كتاب قلائد العقيان ومحاسن الأعيان. وكتاب مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس.





وقد حله مع طائفة من وزرائها. (..) وبين يدي المنصور مائة غلام ما يزيد أحدهم على العشر غير أربع (...) وهم يديرون رحيقًا خلتها في كأسها درًّا أو عقيقًا»[1].

وإلى جانب عنايتهم بالمنيات، اهتم الشعراء الملوك باستثمار المستخلصات والأحقال. ومما لا شك فيه أنها كانت شاسعة وجيدة التربة.

لم يقدم لنا واضعو مصنفات القرن الخامس الهجري، مع الأسف، معلومات تفيد بذلك. فأبوالخير الاشبيلي اكتفى بالإشارة الى «جنة السلطان». ويعني بها إحدى ضياع المعتمد بن عباد. ولكن ابن الخطيب[2] الذي عاش في فترة متأخرة، أمدنا بنص بالغ القيمة يتعلق بمستخلصات سلطان غرناطة النصرية محمد بن أبي الحجاج. يذكر فيه أن هذا السلطان كان يملك «(...) ما يناهز ثلاثين منية. ويحيط بها ويتصل بأذيالها من العقار الثمين الذي لا يعرف الجمام ولا يفارق الريع (...) وفي حمى البلدة وطوق سورها من مستخلص السلطان ما ينيف على العشرين، بها الجمل الضخمة من الرجال، والفحول الفارهة من الحيوان للإثارة وعلاج الفلاحة. وفي كثير منها الحصون والأرحاء والمساجد. ويتخلل هذا المتاع الغبيط، الذي هو لباب الفلاحة وعين هذه المدرة الطيبة سائر، القرى والبلاد التي بأيدي الرعية»[3].

وقد كان الشعراء الملوك يعينون وكلاء يفوضون لهم أمر إدارة تلك المستخلصات والأحقال وأمر الإشراف على استثمارها بتعيين فرق من المزارعين تناط لهم مختلف المهام التي يتطلبها العمل الزراعي.

---

(1) انظر قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، نسخة حققها وعلق عليها حسن يوسف خربوش، مكتبة المنار للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، 1989، ص 202.

(2) هو أبوعبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني الغرناطي (توفي سنة 776هـ). وزير وطبيب ومؤرخ وفقيه وأديب. ألف في مختلف العلوم.

(3) اللمحة البدرية، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980، ص 24. المعطيات التي يتضمنها هذا النص أوردها ابن الخطيب متفرقة في المجلد الأول، صفحة 115 وما يليها من كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973، أربع مجلدات.





ثانيًا: علاقة شعراء البلاطات بالنشاط الزراعي.

«نذر» شعراء هذه الفئة حياتهم لمجالسة الملوك ونظم الشعر. ومن أبرزهم ابن زيدون وابن عمار وابن الحداد وأبوعامر ابن مسلمة[1] وابن اللبانة. وكانت صلة بعضهم بالنشاط الزراعي شبيهة بصلة الملوك به. لأنهم كانوا يملكون منيات وضياع.

يكفي أن نذكر أن ابن زيدون كان ينتمي لأسرة قرطبية عريقة على جانب من الجاه والثراء، فورث عنها الوجاهة والثراء، وجالس الملوك، ونظم غزلًا في إحدى بناتهم[2]. وعلى غراره، ينحدر ابن مسلمة من أسرة علم وشرف وثراء، فورث عن أبيه ضياعًا، خشي أن يستحوذ عليها المعتضد بن عباد. فانحاز إليه ونادمه وأصبح من خاصته[3]. أما ابن عمار وابن حداد وابن اللبانة فينحدرون من وسط فقير. ينتمي الأول لأسرة متواضعة كانت تقيم بإحدى قرى شلب. ولكنه تألق بشعره واستطاع أن ينال حظوة لدى بني عباد. فأضحى رفيقًا ونديمًا للمعتمد. واغتنى واقتنى الضياع. بل أصبح يمن على الآخرين بالهبات. يذكر الفتح بن خاقان أن ابن عمار «جلس مجلس الأمراء»[4]. ويضيف ابن الأبار أنه (أي ابن عمار) أخذ يتصرف تصرف الملوك. «فاستعمل خساس عبيده على الحصون وأقطعهم الضياع»[5]. وينتمي الثاني لأسرة معوزة كانت تقيم بألمرية بعد انتقال جده إليها من وادي آش عقب اغتصاب ممتلكاته. فاعتمد على قدراته الذاتية وموهبته.

---

(1) هو أبوعامر محمد بن محمد بن عبدالله بن مسلمة. من أهل قرطبة (توفي سنة501هـ). كانت له عناية بعلوم الحديث واللغة والأدب ونظم الشعر. ينحدر من أسرة علم وجاه. انتقل من قرطبة إلى اشبيلية. وعاش في كنف المعتضد بن عباد. اشتهر بكتاب «حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح».

(2) انظر في هذا الشأن علي عبدالعظيم، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 29 وما يليها.

(3) أبوالحسن علي ابن بسام الشنتريني (توفي سنة 542هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1978، القسم الثاني، المجلد الثاني، ص 535.

(4) انظر قلائد العقيان، ص 253.

(5) أبوعبدالله محمد بن عبدالله القضاعي، المعروف بابن الأبار (توفي سنة 658هـ)، كتاب الحلة السيراء، تحقيق وتعليق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، 1985، الجزء الثاني، ص 142.





وغدا من أقطاب شعراء ألمرية. فجالس المعتصم بن صمادح. ولا نعتقد أنه اغتنى وامتلك العقار. لأنه غادر ألمرية الى سرقسطة ثم عاد الى ألمرية بعد ذلك. وينحدر الثالث من أسرة دانية فقيرة. فقدت من يعيلها. فاضطرت أمه لبيع اللبن لتحصيل قوت أبنائها.

وتمكن بفضل موهبته وإبداعه من نيل حظوة لدى بني عباد. فأضحى كابن عمار من جلساء المعتمد[1]. ولا نعتقد أنه اغتنى كابن عمار. إذ غادر اشبيلية بعد سقوط المعتمد في الأسر. ورحل الى ميورقة التي استقر بها حتى وفاته[2].

ولكن أكثر ما هو معروف عن صلة شعراء هذه الفئة بالنشاط الزراعي تمثل في التغني بالرياض والجداول والأشجار والنباتات. والاحتفال في ذلك. حتى أن أبا عامر بن مسلمة اشتهر بكونه اختص في وصف الأزهار. ووضع فيها مصنفًا[3]. ولم يشتهر بكونه كان «من كبار الفلاحين».

وإن القول في عمارة الأرض غطى على الصلة العملية لشعراء هذه الفئة بها، حتى إن ما نظموه في موضوعها، وكذلك ما نظمه المعاصرون لهم، يكاد يؤلف لوحده غرضًا من أغراض الشعر قائم بذاته ومستقل عن الوصف. مما ينهض دليلًا على الصلة الوثيقة التي ربطت شعراء هذه الفئة بالنشاط الزراعي. وان طغى على تلك الصلة البعد النظري - الجمالي في المقام الأول.

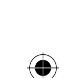
ولكن لا بأس من الإشارة الى أن الورود والأزهار والرياحين التي ركز هؤلاء الشعراء على جانبها الجمالي، تناولها علماء الفلاحة والنبات وبعض الأطباء من الجانب النفعي أو الوظيفي، كنباتات تستخلص من بعضها عطور للزينة. ويدخل بعضها الآخر ضمن الأعشاب الطبية[4].

(1) انظر مقدمة كتاب محمد مجيد السعيد الذي سبقت الإحالة عليه.

(2) المرجع السابق نفسه.

(3) نعني هنا كتابه «حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح».

(4) انظر على سبيل المثال كتاب عمدة الطبيب في معرفة النبات لأبي الخير الاشبيلي. وقد سبقت الإحالة عليه.





ثالثًا: علاقة شعراء «المرتبات» بالنشاط الزراعي:

كان شعراء هذه الفئة يقولون شعرًا مقابل مرتب. وكانوا ينتظرون، بالإضافة الى ذلك، المناسبات لنظم القصائد سعيًا لنيل أعطيات نقدية أو عينية. وقد قدر لبعضهم أن يمنح قطعة أرض. ومن بينهم ابن دراج القسطلي[1] وابن شهيد الأندلسي[2].

فقد ساءت أوضاع ابن دراج بعد الفتنة. وعاش سنوات عدة تحت وطأة الحاجة وتعب التجوال. حتى حط الرحال بمملكة سرقسطة التي قال أشعارًا في صاحبها المنذر بن يحي التجيبي. فوهبه «جنة». ولم يجد شاعرنا حرجًا في التصريح بمنة الأمير عليه. فقال في موضوعها في أبيات من إحدى قصائده:

[المتقارب]

وهَاتيكا جَنَّتُنا والتي
حَبانا بها سَيّدُ المُنْعَمينا
وأبيَنُ آياتِنا أنّنا
حَلَلْنا لَدَيهِ المَكانَ المَكينا
ومَنْ شكّ في حَظِّنا مِنْ رِضاهُ
فتِلْكَ لنا أعْدَلُ الشّاهِدينا[3]

---

(1) هو أبوعمر أحمد بن محمد بن دراج الأندلسي القسطلي (توفي سنة 421هـ). يعد أحد أشهر شعراء نهاية القرن الرابع الهجري ومطلع القرن الموالي. كان من خاصة المنصور بن أبي عامر الذي عينه كاتبًا له. ترك قصائد كثيرة اهتم بجمعها وتحقيقها ودراستها عدد من المشتغلين في حقل الأدب. من بينهم محمود علي مكي الذي حقق تلك القصائد وعلق عليها وقدم لها في كتاب تحت عنوان: ديوان ابن دراج القسطلي، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، 1961.

(2) هو أبوعامر أحمد بن عبدالملك بن أحمد ابن شهيد (توفي سنة 426هـ). ينحدر من أسرة عريقة. وكان كابن دراج القسطلي من الشعراء المجيدين. فضلًا عن إتقانه للكتابة النثرية. له ديوان شعر جمعه وحققه ونشره يعقوب زكي وراجعه محمود علي مكي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، دون ذكر تاريخ الطبع.

(3) انظر القصيدة في الصفحات 232 – 236 من نسخة محمود علي مكي.



وحدث أن أصبح ابن شهيد يعيش هو الآخر في ضائقة مالية، فالتمس من أحد وزراء المؤتمن عبدالعزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية أن يهبه «ضيعة» يتعيش منها. فوعد الوزير ابن شهيد بتلبية طلبه. ولكن وقعت أحداث حالت دون ذلك. فراسل ابن شهيد المؤتمن شخصيًّا يلتمس منه تنفيذ ما وعده به الوزير «بصرف ضيعة له بجهة تدمير حالت الفتن دونها، واضطراب الأحوال عن مطالعتها»[1].

وعلى كل، فإن شعراء هذه الفئة، ممن وهبت لهم استغلاليات، كانت صلتهم بالنشاط الزراعي شبيهة الى حد ما بصلة شعراء الفئتين الأولى والثانية به. لأنهم قالوا فيه شعرًا. فتغنوا بالجداول والأشجار وبعض المزروعات وأنواع من الخضراوات والفواكه. كما مارسوا الزراعة باتباع نظام الاستثمار غير المباشر. وهذا النظام كان متبعًا من قبل الملوك ومن قبل خاصة المجتمع، كالوزراء والقضاة وبعض صغار الأرستقراطية، وبعض التجار الذين كانوا يقيمون بالحواضر ويملكون استغلاليات في الأرياف.

ولكن شعراء هذه الفئة اختلفوا عن الشعراء الملوك، وعن شعراء البلاطات، في كونهم اتخذوا من النشاط الزراعي مصدرًا للعيش فضلًا عن الأعطيات التي كانوا يحرصون على الحصول عليها عن طريق النظم في المناسبات.

والجدير بالذكر أن بعض شعراء هذه الفئة كانوا يمنون النفس بالحصول على استغلاليات ليجمعوا بين نظم الشعر وممارسة الزراعة. ولكن لم يقدر لهم تحقيق هذه الرغبة. فظلت صلتهم بالزراعة نظرية. فما كان على أحدهم، وهو أبوجعفر الخراز البطرني، سوى التشبث بالأمل كما عبر عن ذلك في بضعة أبيات مدح فيها المعتصم بن صمادح واختزل فيها بعض جوانب النشاط الزراعي. فقال:

---

(1) ورد نص المراسلة في كتاب الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ص197 - 198.



[الطويل]

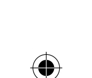
ومـازلـتُ أجـنـي مـنـكَ والـدّهـرُ مُمْـجِـلٌ
ولا ثـمَـرُ يُـجـنـى ولا الــزرْعُ يُـحْـصَـدُ
ثِــمــارَ أيـــادٍ دانـــيـــاتٍ قُـطـوفُـهـا
لأغـصـانِـهـا ظــلٌّ عــلَــيَّ مُمــدّدُ
يُــرَى جـاريًـا مــاءُ المـكـارمِ تحـتَـهـا
وأطـيـارُ شُـكـرى فـوقـهـنَّ تُـغـرِّدُ[1]

رابعًا: علاقة الشعراء الجوالين بالنشاط الزراعي:

لم يستطع الشعراء المنتمون لهذه الفئة نيل «مرتبات» منتظمة. كما لم يحظوا بمنة من الملوك أو أحد الوزراء وغيرهم من كبار خاصة المجتمع. فكانوا يتجولون بين الممالك الطائفية. ويتكسبون بقول الشعر في الملوك. ومن بينهم أبوعامر محمد ابن الأصيلي وأبوالفضل جعفر بن محمد بن شرف وأبومحمد بن مالك القرطبي وأبوالقاسم الأسعد بن إبراهيم بن الأسعد المعروف بابن بليطة وأبومحمد عبدالله ابن محمد بن صارة وأبوزيد عبدالرحمن بن مقانا الأشبوني.

ومعظم هؤلاء، الذين أوردنا أسماءهم وغيرهم، ربطتهم بالنشاط الزراعي صلة نظرية فقط فيما نعلم. فقالوا فيه شعرًا في سياق وصف الطبيعة أو وصف بعض المنتوجات الزراعية. ولا ندري هل تمكن بعضهم من حيازة قطعة أرض، أم عاشوا في فاقة كأبي محمد بن مالك القرطبي[2] وأبي محمد عبدالله بن محمد ابن صارة[3].

(1) انظر الأبيات عند المقري في كتاب نفح الطيب، المجلد الثالث، ص 413.
(2) ابن بسام، الذخيرة، القسم الأول، المجلد الثاني، ص 246. وإحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي. عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 1997، ص 68.
(3) تفيد بعض المصنفات التي ترجمت له أنه امتهن الوراقة في آخر عمره لتحصيل قوت يومه.





وشذ عنهم ابن شرف القيرواني الذي مدح المعتصم بن صمادح، فمنحه «حق الإنزال» في قرية بأكملها[1] وابن مقانا الأشبوني الذي عاد وهو شيخ الى مسقط رأسه. وكانت له به قطعة أرض. فتفرغ للزراعة ونظم فيها أيضًا. وقد تبنى نظام الاستثمار المباشر وغدا كسائر الفلاحين البسطاء. لأن الأرض أضحت المصدر الوحيد الذي يحصل منه على قوت يومه.

واذا كانت المصنفات التي عدنا إليها قد قدمت لنا معلومات عن الوجه النظري في الصلة التي ربطت شعراء «المرتبات» والشعراء الجوالين بالنشاط الزراعي، فإنها لم تقدم لنا مع الأسف معلومات تتيح إمكانية رصد المظهر التطبيقي، أو العملي في تلك الصلة. باستثناء المعلومات التي نملكها عن ابن مقانا الأشبوني.

بل إن تلك المصنفات لم تقدم لنا أسماء كافة الشعراء الذين كانوا يملكون استغلاليات ويتعيشون من عائداتها على غرار عدد من الفقهاء الزهاد الذين كانوا يملكون استغلاليات صغرى. عكفوا على استثمارها بأنفسهم لسد حاجياتهم كابن مقانا. ومن بينهم، على سبيل المثال، الفقيه الورع أبومحمد عبدالله بن عبدالرحمن الصدفي (المتوفى سنة 424هـ). كان يملك ضيعة بأحواز طليطلة. وكان «يتولى عمل غنب كرمه بنفسه»[2].

---

(1) يفيدنا المقري في الصفحة 396 من المجلد الثالث من كتاب نفح الطيب، بأن أبا الفضل بن شرف مدح المعتصم بن صمادح بقصيدة مطلعها:

قامت تجر ذيول العصب والحبر ضعيفة الخصر والميثاق والنظر

ومن ضمنها بيت يقول فيه:

لـم يبق للجـور في أيامهـم أثر الا الذي في عيون الغيد من حور

وكان ابن صمادح يعلم بأن أبا الفضل يشكو من عامل يمنعه من استثمار قطعة أرض بقرية بموجب «حق إنزال». فلما وصل الى هذا البيت من قصيدته، قال له الملك: «أنا أسوغك جميع القرية».

ولا بأس من التذكير بأن «حق الإنزال» هو صيغة من صيغ الإقطاع. يخول للمستفيد منه حق استثمار استغلالية والاستفادة من ريعها ولكن دون أن تؤول إليه ملكيتها.

(2) أبوالقاسم خلف بن عبدالملك بن بشكوال (توفي سنة 578هـ)، الصلة، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989، الجزء الثاني، ترجمة 591، ص 408.



والفقيه الزاهد أبوعمر معوذ بن داود الأزدي التاكرني (المتوفى سنة 431هـ). كان يقضي جل وقته في العبادة واستثمار «ضيعة» بإحدى نواحي جبال رية. وكان يستهلك جزءًا من محاصيلها ويتصدق بالباقي على من قصده من طلبة العلم والفقراء وعابري السبيل[1]. وأبوعمر أحمد بن يحي بن سميق (المتوفى سنة 451هـ). رحل من قرطبة الى طليطلة. وبها «كان يختلف الى غلة له. كان يعمرها بنفسه ليعيش منها»[2].

وعمومًا يمكن القول، بأن مختلف المصنفات، بما فيها دواوين الشعر، توفر للباحث فيضًا من المعلومات حول طبيعة العلاقة النظرية والعملية التي كانت قائمة بين الشعراء الملوك «الفلاحين» والمنيات والمستخلصات التي كانت في حوزتهم. وتنسحب تلك المعلومات أيضًا على علاقة شعراء البلاطات بالنشاط الزراعي. ولكننا لا نتوفر، في المقابل، على معلومات تضاهيها حول الوجه العملي في صلة شعراء الفئتين الثالثة والرابعة بالاستغلاليات الصغيرة التي كانت في حوزتهم. ورغم ذلك، نرى أن المعلومات التي قدمها لنا ابن مقانا عن نفسه بنفسه تسمح بتسليط الضوء على صلة شعراء هاتين الفئتين بالنشاط الزراعي.

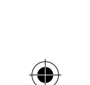


ومن غريب الصدف أن تلك المعلومات، التي يقتضي استقاؤها الإطلاع على مجموعة دواوين ومجاميع، توفرها قصيدة من بضعة أبيات نظمها شاعرنا. وهي القصيدة العينية التي يقول في مطلعها:

---

(1) أبومحمد عياض بن موسى بن عياض السبتي (توفي سنة 544هـ)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعيان مذهب مالك، تحقيق وتصحيح محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، الجزء الثاني، ص 316.

(2) انظر كتاب الصلة، الجزء الأول، ترجمة 119، ص 103.





[الطويل]

أبـا عَـامـرَ الـقَـبْـذَاقُ لاَ تَـخـلُ مِـن زرعٍ

وَمِــنَ بَـصَـلٍ نَــزْرٍ وَشـــيءٍ مِـنَ القَرعِ[1]

وقد اعتمد المستشرق هنري بيريس (Henri Pérés) هذه القصيدة لإدراج ابن مقانا ضمن لائحة من نعتهم «بالشعراء الفلاحين»[2]. ونعتقد أنه كان محقًّا فيما ذهب اليه. فهذه القصيدة تفيد بحق بأن هذا الشاعر غدا فلاحًا بعد أن شاخ. وأضحت الزراعة مصدر رزقه. وتختزل القصيدة في الوقت ذاته علاقة عامة فلاحي الأندلس بالنشاط الزراعي. وتسلط الضوء على طبيعة ذلك النشاط في قرية القبذاق وفي منطقة الغرب وفي الأندلس بصورة عامة. كما تقدم معلومات قيمة عن الاستغلاليات الخاصة الصغرى التي كانت مهيمنة وعن نظام استثمارها وعن الأساليب التي كانت متبعة في العمل الزراعي وعن المحاصيل التي كانت تجود بها تلك الاستغلاليات. وتتضمن القصيدة بالإضافة الى ذلك معلومات تسمح بإماطة اللثام عن الظروف التي كان يتم فيها العمل الزراعي وعن المصير الذي كانت تؤول اليه عائدات الأرض.

وقبل أن نوضح هـذه القضايا بتفصيل، لا بـأس من التعريف بالشاعر واستعراض السياق الذي وردت فيه قصيدته.

****

(1) وردت القصيدة في كتاب الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الثاني، ص 787.

(2) وهم ابن عمار وابن شرف وابن مقانا. انظر كتابه الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، مرجع سبق ذكره، ص 59.







الفصل الأول

في التعريف بابن مقانا وسياق القصيدة

1 - في التعريف بابن مقانا:

يذكر ابن بسام الشنتريني أن ابن مقانا كان «من شعراء [غرب الأندلس] المشهورين»[1]. ويبدو في اعتقادنا أن الأمر عكس ذلك. لأنه لم يحظ باهتمام القدامى والمحدثين. بل لا نعرف تاريخ ولادته أو تاريخ وفاته. وما كتبه بعضهم في التعريف به وبشعره جد قليل. فالحميدي كان، فيما يبدو، أول القدامى الذين تناولوا ذكره في سطرين تحت اسم «عبدالرحمن بن مقانا البطليوسي أبوزيد». ذكر فيها «أنه أديب مشهور كان حيًّا في أيام المعتد بالله». وأورد له قصيدة من ستة أبيات في وصف روض[2]. ثم أفرد له ابن بسام الشنتريني بضع صفحات ذكر فيها لمعًا من أخباره وساق جملة من شعره[3].

وترجم له الضبي بإيجاز شديد في سياق تعريفه «برجال أهل الأندلس»[4]. وعلى غرار هؤلاء تحدث عنه ابن سعيد المغربي في عجالة. ولم يزد شيئًا عما أورده ابن بسام، سوى ما ذكره عن سفر الشاعر إلى حضرة مالقة ومدحه للخليفة إدريس

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثاني، المجلد الثاني، ص 786..

(2) أبوعبدالله محمد بن فتوح بن عبدالله الحميدي الأزدي (توفي سنة 488هـ)، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق وتعليق بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008. ترجمة رقم 619،، ص 402.

(3) الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الثاني، ص 786 - 796.

(4) أبوجعفر أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي (توفي سنة 599هـ)، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، 2005، ص 344 - 345.





ابن يحيى بن علي بن حمود (العالي بالله)»[1]. وأثبت قصيدة المدح التي سبق أن أوردها ابن بسام. ولولا تلك القصيدة، لما تحدث عنه القدامى في اعتقادنا.

وعلى غرار القدامى، لم يشمله الباحثون المحدثون والمعاصرون بأبحاث مستفيضة. فقد أورد هنري بيريس معلومات قليلة عنه. بينما اكتفى إحسان عباس وشوقي ضيف بإشارات حوله أورداها في سياق عام[2]. وخصه الباحث العراقي عدنان محمد أحمد آل طعمة بمقال من حوالي عشرين صفحة ركز فيها على مقام ابن مقانا بمالقة، ومدحه للعالي بالله. وعلى مسألة تشيع الشاعر لآل البيت[3]. واستحضر الباحث الكويتي طلال الجويعد، ذكراه في مقال من ثلاث صفحات[4].

وحصيلة ما نتوافر عليه من معلومات في التعريف بابن مقانا. هو أن اسمه عبدالرحمن بن مقانا الأشبوني. وكنيته أبوزيد. وهو من شعراء عصر الطوائف. كان حيًّا سنة 460 هجرية. لأنه ذكر في قصيدته العينية، التي أوردنا مطلعها، أبا بكر محمد المظفر صاحب بطليوس الذي توفي سنة 461 هجرية.

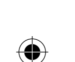
ينحدر أبوزيد عبدالرحمن بن مقانا من أسرة مغمورة. اعتبرها عدنان محمد آل طعمة «أسرة غير عربية» لأن اسم «مقانا» الذي يحمله ربها مشتق، حسب زعمه، من كلمة «Magno» أو «Magnes».

(1) أبوالحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي (توفي سنة665هـ)، المغرب في حلى المغرب، تحقيق وتعليق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1978 – 1980، الجزء الأول، ص 98.

(2) ما أورده هنري بيريس سبق أن ذكرناه. وما قاله إحسان عباس عن الشاعر ورد في كتابه تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دار الثقافة، بيروت، 1962، ص 85 – 86.. وما قاله عنه شوقي ضيف ورد في الجزء الثامن الخاص بالأندلس من كتابه تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، 1989، ص 310 – 312.

(3) «ابن مقانا الأشبوني شاعر الدولة الحمودية في الأندلس»، مجلة أهل البيت عليهم السلام، العدد السادس، سنة 2008، ص 242 – 261.

(4) «عبدالرحمن بن مقانا الأشبوني شاعر أندلسي مجيد سقط من ذاكرة التاريخ»، مجلة البيان الكويتية، يوليو 2013، ص 98 – 100.



ويضيف بأن الكلمة الأولى كانت أكثر تداولاً. استعملت كاسم علم حمله شاعر يوناني عاش في أثينا حولي سنة 470 قبل الميلاد. كما استعملت كصفة بمعنى «العظيم». واقترنت بأسماء بعض ملوك أوربا العصر الوسيط. مثل ألبرتو العظيم[1].

وإذا عدنا الى رواية الحميدي التي يذكر فيها أن عبدالرحمن بن مقانا كان «حيا في أيام المعتد بالله»، فمعنى ذلك أن شاعرنا ولد قبيل سنة 400 هجرية. لأن المعتد بالله، والمقصود به أبوبكر هشام بن محمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر، آخر خلفاء قرطبة وخلفاء بني أمية، ولد سنة 364 هجرية. وتوفي سنة 428 هجرية.

ومن المحتمل أن يكون ابن مقانا الأشبوني قد ولد بين سنتي 390 و400 هجرية. وبناء على هذا الاحتمال، كان يبلغ ما بين 28 و38 سنة عند وفاة المعتد بالله. ويختلف اقتراحنا مع ما قال به عدنان محمد آل طعمة الذي جعل مولده بين سنتي 350 و400 هجرية حين ذكر بأنه «ولد في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري»[2].

وعلى كل، كانت أسرة مقانا تقيم زمن ولادة ابنها عبدالرحمن، بقرية تدعى القبذاق من ساحل شنترة (Cintra). وقد قضى عبدالرحمن صباه وطفولته في القرية المذكورة التي كانت تابعة لإقليم شاسع تقع به بعض المراكز الحضرية الكبرى مثل أشبونة عاصمة البرتغال الحالية وماردة وشلب (Silb) أو (Silves) وشنترة (Cintra) أو (Sintra) وشنترين (Santaréme).

---

(1) انظر مقاله السالف الذكر، ص 244.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 245.





ويفيدنا ياقوت الحموي[1]، في معرض حديثه عن شلب، أن أهل الإقليم جبلوا على قول الشعر، بما في ذلك فلاحوها. حتى أنه «قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرًا ولا يتعانى الأدب. ولو مررت بالفلاح في فدانه وسألته عن الشعر لقرض من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبت منه»[2].

ويبدو أن ياقوت الحموي لم يبالغ فيما ذهب إليه. إذا علمنا بأن رجلًا يدعى جاخ الصباغ، من أهل بطليوس، كان أميًّا وينظم الشعر. وذاع صيته. ورحل من بطليوس الى اشبيلة. وقال شعرًا بين يدي أبي عمرو عباد المعتضد بالله. فأعجب به وعينه «رئيس الشعراء» في بلاط اشبيلية[3].

ولا بأس من التذكير أيضًا بأن الإقليم ذاته أنجب جمهورًا من كبار الشعراء والأدباء أمثال ابن عمار وابن بسام الشنتريني وأبي بكر المظفر الملك الشاعر وأبي جعفر أحمد الأعمى التطيلي.

وقد ترعرع ابن مقانا وشب في هذه البيئة. ويستفاد من القدامى الذين عرفوا به، وأهمهم ابن بسام الشنتريني، أنه غادر موطنه حين اشتد عوده، بحثًا عن الحظوة. فطاف على غرار عدد من شعراء القرن الخامس الهجري بعدة ممالك طائفية مثل سرقسطة ودانية وبلنسية ومالقة التي يبدو أنه لقي بها شيئًا من الحظوة على يد صاحبها إدريس بن يحيى بن علي بن حمود الذي حكم مملكة مالقة بين سنتي 434 و438 هجرية. فأطيح بعرشه. ثم عاد للحكم بين سنتي 444 و446 هجرية. وقد امتدحه ابن مقانا بمجموعة قصائد. أشهرها قصيدة نونية يقول في مطلعها:

(1) هو أبوعبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (توفي سنة 626هـ). رحالة وجغرافي وأديب. مولى أحد كبار تجار بغداد. جمع بين التجارة وطلب العلم. ووضع عدة مؤلفات أشهرها معجم البلدان، لم يرد اسم محققه في النسخة الصادرة عن دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1955، خمس مجلدات.

(2) معجم البلدان، الجزء الثالث، ص 357 – 358.

(3) انظر الحميدي، جذوة المقتبس، مصدر سبق ذكره، ترجمة رقم 965، ص 592. والمقري، نفح الطيب، المجلد الثالث، ص 452.



[الرمل]

أَلِـــــبــــــرْقٍ لائـــــحٍ مـــن أنـــدريـــنْ
ذرفَـــــتْ عـيـنـاكِ بــالمــاءِ المَعينْ[1]

وفيها يقول لمدوحه:

وكــــــأن الــشــمــس لمـــا أشــرقــت
فـانـثـنـت عـنـهـا عـيـون الـنـاظـريـنْ
وجـــه ادريـــــس بـــن يـحـي بـــن علـي
بـــن حـــمـــود أمـــيـــر المـــؤمـــنـــين

ويبدو أن ابن مقانا حقق في مالقة ما كان يصبو إليه. فأصبح من خاصة شعراء إدريس بن يحي بن علي بن حمود. وعد خلال فترة من الزمن شاعر الحموديين المقدم لديهم. ومن المحتمل أن يكون ذلك قد حصل خلال الفترة الأولى من عهد إدريس بن يحي السالف الذكر.

والغريب في الأمر أنه لم يمكث مدة طويلة في مالقة. فغادرها لسبب لا نعرفه. كما لا نعرف هل غادرها بعد نهاية الفترة الأولى من حكم إدريس بن يحي ابن علي بن حمود. أم ظل بها ولم يغادرها الا بعد نهاية الفترة الثانية من حكمه.

وعلى كل، عاد شاعرنا إلى مملكة بطليوس التي أقام في حاضرتها فترة في كنف أبي بكر محمد المظفر الذي حكم بين سنتي 437 و461 هجرية. ولا نعلم كم مكث في الحاضرة؟ ومتى غادرها إلى قرية القبذاق؟.

واذا افترضنا بأن شاعرنا ظل في مالقة طيلة فترتي حكم إدريس بن يحي بن علي بن حمود، فيكون قد مكث بها إحدى عشرة سنة على أبعد تقدير. ثم غادرها

(1) وردت القصيدة في كتاب الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الثاني، ص 791 - 793.

إلى بطليوس سنة 446 هجرية. وأقام في كنف أبي بكر محمد المظفر عشر سنوات على أبعد تقدير. رغم أن المصنفات التي عرفت به، لم تحفظ لنا ولو قصيدة قالها في حق أبي بكر المظفر، غير شطر بيت من قصيدته العينية ذكر فيه اسم هذا الملك وأشار فيه الى إحسانه:

وَحُـــبُّ أَبــي بـكْـرٍ المُـظَـفَّـرُ فـادَنـي

وَإِحْـسـانُـهُ حتّى انْـصَـرَفْتُ إِلـى رَبْـعي

ونعتقد أن ابن مقانا أحس بعد فترة إقامة في كنف المظفر بأنه يشيخ. وأنه لم يعد قادرًا على نظم شعر جيد. فقرر الانسحاب من عالم الشعر والشعراء ليمتهن عمارة الأرض.

ومن المحتمل أيضًا أن يكون للإعاقة التي كان يعاني منها دور في اتخاذه لهذا القرار. فشاعرنا يعترف في شطر بيت من قصيدته العينية أنه كان «قليل السمع»:

بــهَـا قـلَّـةٌ مــنْ كُـلِّ خَـيْـرٍ وَنَـفـعـةٍ

كَـقِـلّـةِ مَـا تــدْرِي لَــدَيَّ مِــنَ الـسَّـمعِ

ويذكر في بيت منفرد أورده ابن بسام في كتاب الذخيرة، أنه كان يعاني من «صمم طبيعي»:

سَـمِـعْـتُ الـكَـنْـكَ يَـصـرُخُ فـي الـرّبـيـعِ

عـلـى مـا بـي مِـنَ الـصَّـمَـمِ الطبيعي[1]

ولا ندري هل كانت إعاقته خفيفة أم حادة؟ لأن الشاعر يتحدث تارة عن «قلة السمع» وتارة عن «الصمم الطبيعي». ومن المعروف أن في قلة السمع درجات.

(1) انظر كتاب الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الثاني، ص 788.





وفي جميع الأحوال، فإن قلة السمع تؤثر على البداهة وعلى سرعة رد الفعل في حلقات الشعر والمناظرات بين الشعراء.

وعلى كل، غادر ابن مقانا مضمار الشعر وعاد الى قرية القبذاق. والغريب في الأمر، أنه يجعلنا نفهم من خلال قصيدته العينية بأنه لم تعد له صلة ببلاط بني الأفطس بعد الفترة التي قضاها في كنف المظفر.

في حين أن ابن دحية[1] جعله من خدام خلفه عمر المتوكل[2] بوصفه قاضيًا. وذكر ذلك في رواية مفادها أن المتوكل خرج يومًا في رحلة استجمام بإحدى نواحي مدينة شنترين رفقة وزيره ابن عبدون[3]. فمر الوفد الملكي ببلدة «بلَّش». «فتلقاهم ابن مقانا قاضي حضرته. وأنزلهم عنده (...) وقدم لهم طعامًا»[4].

ومثل هذه الرواية يصعب تصديقها لأن القدامى الذين عرفوا بابن مقانا لم يشيروا، من قريب أو من بعيد، لمسألة توليه منصب القضاء. ولأن الرجل الأصم لم يكن من الممكن أن يسند له منصب القضاء. لأن من ضمن شروط تولي هذا المنصب، أن يكون المرشح له «صحيح حواس السمع والبصر»[5]. وابن مقانا كان

---

(1) هو أبوالخطاب عمر بن الحسن بن علي، المعروف بابن دحية (توفي سنة 633هـ). وهو واضع كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري وحامد عبدالمجيد وأحمد أحمد بدوي، مراجعة طه حسين، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1955.

(2) هو أبومحمد عمر بن المظفر أبي بكر محمد بن عبدالله بن مسلمة، الملقب بالمتوكل على الله. حكم مملكة بطليوس بين سنتي 464 و488 هجرية.

(3) هو أبومحمد عبدالمجيد بن عبدون الفهري (توفي سنة 529هـ). وهو من أهل يابرة وشعراء غرب الأندلس المتميزين. عينه المتوكل على الله كاتبًا له سنة 473 هجرية.

(4) المطرب من أشعار أهل المغرب، ص 23.

(5) انظر في هذا الشأن «باب صفة القاضي» من كتاب أدب القاضي لأبي العباس أحمد بن أبي أحمد الطبري المعروف بابن القاص (توفي سنة 335هـ)، دراسة وتحقيق حسين خلف الجبوري، مكتبة الصديق للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، 1989، الجزء الأول، ص 98. والصفحتان 21 - 22 من الجزء الأول من كتاب تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام لأبي الوفاء إبراهيم بن علي ابن محمد بن فرحون اليعمري المالكي (توفي سنة 799هـ)، أخرج أحاديثه وعلق عليه الشيخ جمال مرعشلي، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، 2003.



«قليل السمع» أو «أصم». اللهم إلا إذا كانت إعاقته خفيفة جدًّا عند توليه منصب القضاء. ثم ارتفعت حدتها بعد تقدمه في السن؟.

ومهما يكن من أمر، فإن ما يبدو واضحًا بالعودة للقصيدة العينية، هو أن ابن مقانا كان مقيمًا بقرية القبذاق قبل سنة 461 هجرية تاريخ وفاة أبي بكر محمد المظفر. وبها عكف على استثمار قطعة أرض.

وينقل إلينا ابن بسام في هذا الشأن، رواية مفادها أن الوزير الفقيه أبا عبدالله محمد بن إبراهيم الفهري[1] أخبره أنه زار يومًا ابن مقانا في قريته، فوجده يمسك «بمزبرة»[2]. فمال أحدهما إلى الآخر، ثم جلسا ينظران إلى «حراث يحرث بين يدي» ابن مقانا.

فاستنشد أبوعبدالله الفهري ابن مقانا فارتجل قائلًا:

أبَـا عَـامِـرَ الـقَـبْـذَاقُ لاَ تَـخْـل مِـنْ زرعٍ
وَمِـــنْ بَـصـلٍ نَـــزَرٍ وشَـــيءٍ مِـنَ الـقَـرْعِ
وإن كُـنْـتَ ذَا عَـــزْمٍ فَـلاَ بُـدَّ مِـن رحَـى
سَـحَـابِـيَـةٍ لاَ تَـسْـتَـمِـدُّ مِــنَ الـنَّـبْـعِ
فَـمَـا أَرْضُ قَـبْـذَاقَ وَإِنْ جَـادَ عَـامُـهَـا
بِمُـوفِـيَـةٍ عِـشْـرِيـنَ مِــنْ حُـــزَمِ الــزَّرْعِ
وَإِنْ أَنْجَـبَـتْ شَـيْـئًـا وَزَادَتْ تَـوَاتَـرَتْ
إلَـيْـهَـا خَـنَـازِيـرُ المَـغَـاوِرِ فِـي جَـمْـعٍ
بِــهَـا قِـلَّـةٌ مِــنْ كُـلِّ خَـيْـرٍ وَنَـفْـعَـةٍ
كَـقِـلَّـةِ مَـا تَــدْرِي لَــدَيَّ مِــنَ الـسَّـمْـعِ

(1) يذكر ابن بسام أنه كان وزيرًا محمود السيرة، قتلته «الدهماء» في مدينة الأشبونة. انظر كتاب الذخيرة، القسم الثالث، المجد الأول، ص 865 – 866.. ولكنه لم يذكر تاريخ مقتله.

(2) اسم آلة معدنية تشبه المنجل الذي يستعمل للحصاد، وهي أصغر منه حجمًا وأقل منه تقوّسًا، وتستعمل لقطع فروع الأشجار.



تَـرَكْـتُ المُـلُـوكَ الخَـالِـعِـينَ بُـرودَهـم
عَـلَـيَّ وَسَـيْـرِي فِـي المَـوَاكِـبِ وَالـنَّـقْـعِ
وَأَصْـبَـحْـتُ فِي قَـبْـذَاقَ أَحْـصُـدُ شَوْكَـها
بِمِــزبَــرَةٍ رَغْــشَــاءَ نـابـيـة الـقَـطْـعِ
فَـــإِنْ قِـيـلَ تَـهْـجُـوهَـا وَأَنْـــتَ تُـحِـبُّـهَـا
فَقُـل إِنَّ حُـبَّ الخِـلِّ مِـنْ شَــرَفِ الطَّبْـعِ
وَحُـــبُّ أَبِـــي بَـكْـرِ المُـظَـفَّـر فَـادَنِـي
وَإِحْـسَـانُـهُ حَـتَّـى انْـصَـرَفْـتُ إِلَـى رَبْـعِـي

2 - عن القبذاق وغرب الأندلس:

تقع قرية القبذاق (Alcabideche) أو (Alcabidache) في غرب البرتغال على مشارف المحيط الأطلسي، في موقع وسط بين شنترة (Cintra) أو (Sintra) التي تبعد عنها بستة عشر كلمترًا وأشكونية (Cascais) التي لا تفصلها عنها سوى مسافة قصيرة قدرها خمس كلمترات. وهي قريبة أيضًا من العاصمة لشبونة (Lisboa) التي تبعدها بثمانية وعشرين كيلومترًا.

وهي من القرى القديمة، التي ظلت قائمة بعد الوجود العربي الإسلامي بشبه جزيرة أيبيريا. ولم تندرس حسب زعم عدنان محمد آل طعمة[1]. وقد اتسع عمرانها بعد نهاية العصر الوسيط. وتزايد عدد سكانها. فأضحت اليوم بلدة مساحتها حوالي أربعين كلمترًا مربعًا، وعدد سكانها أكثر قليلًا من 42 ألف نسمة حسب إحصاء 2011[2].

(1) عدنان محمد أحمد آل طعمة، «ابن مقانا الأشبوني شاعر الدولة الحمودية في الأندلس»، مقال سبق ذكره، ص 244.

(2) انظر المعطيات التي يتضمنها موقع المؤسسة الوطنية للإحصاء.
Instituto Nacional de Estatistica (I.N.E) www.ine.pt
وكذلك الموقع: www.tageo.com



كانت القبذاق خلال القرن الخامس الهجري مجرد قرية كما ذكرنا آنفًا، سماها إبن سعيد المغربي «حديقة الحدائق»[1]. وكانت من أعمال مملكة بطليوس التي نشأت إلى جانب ممالك أخرى في سياق التجزئة السياسية التي شهدتها الأندلس بعد سنة 422 هـ. ومن أهم حواضر تلك المملكة بطليوس وأشبونة وشنترة وشنترين وماردة.

وقد شكلت هذه الحواضر وقراها بالإضافة إلى كل من إشبيلية وباجة والقرى التابعة لهما ما يسمى في المصادر الجغرافية بغرب الأندلس، وهي التسمية التي تنعتها بها كذلك المصنفات الأدبية ومن ضمنها «ذخيرة» ابن بسام الذي يتحدث عن أخبار هذه المنطقة وعن مشاهيرها في قسم من مؤلفه تحت عنوان «فصل في ذكر الأعيان المشاهير من أرباب صناعة المنظوم والمنثور، بحضرة إشبيلية ونواحيها وما يصاقبها ويدانيها من بلاد ساحل البحر المحيط الرومي، وهو الجانب الغربي من جزيرة الأندلس»[2].

وانطلاقًا مما تقدم، يتضح بأن حواضر وقرى وسط وجنوب البرتغال بالإضافة إلى حواضر وقرى غرب إسبانيا شكلت خلال فترة الوجود العربي الإسلامي بشبه جزيرة إيبيريا ما كان يسمى غرب الأندلس الذي يتطابق جغرافيًّا مع ما يعرف اليوم باسم إقليم الإسترامادور (Estrémadure) الذي يتكون من شقين: إسترامادور إسباني وآخر برتغالي.

يتميز الشق الإسباني بكونه شاسع المساحة يطغى على مناخه الطابع القاري. أما الشق البرتغالي، فهو إقليم ضيق يغلب عليه التضرس. يقع على امتداد المحيط الأطلسي ويخضع لتأثيراته، ويعتبر صورة مصغرة لدولة البرتغال الحالية التي تبلغ

(1) المغرب في حلى المغرب، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص 98.

(2) انظر كتاب الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الأول، ص 11 وما يليها.



مساحتها حوالي 91900 كلم مربع[1] تمتد كلها على هضبة الميزيتا (Meseta) التي تقع على ارتفاع مهم عن سطح البحر في إسبانيا. وتأخذ في الإنحدار في اتجاه المحيط الأطلسي. ولذلك فإن معظم أراضي البرتغال غير مرتفعة كثيرًا عن سطح البحر، وخاصة الأقاليم الواقعة بمحاذاة المحيط الأطلسي والتي تقع بها لشبونة التي ترتفع عن سطح البحر بـ 231 مترًا، وشنترة التي ترتفع بـ 272 مترا، وأشكونية المحطة السياحية على الساحل والتي تقع على ارتفاع لا يتجاوز 7 أمتار، وبينهما تقع قرية القبذاق التي ترتفع عن سطح البحر بحوالي 119 مترًا[2].

3 - سياق القصيدة:

ارتجل ابن مقانا الأشبوني القصيدة العينية التي تفيد بأنه تحول من شاعر الى فلاح، عندما زاره الوزير الفقيه أبوعبدالله محمد بن ابراهيم الفهري بقرية القبذاق كما ذكرنا سابقًا. فوجده يمسك مزبرة وأمامه «حراث» يقلب جزءًا من قطعة الأرض التي يملكها شاعرنا.

ويمثل اللقاء بين الرجلين اللحظة الآنية، أو السياق الخاص الذي تم فيه نظم القصيدة. أما سياقها العام، فيتمثل في الظروف العامة التي قال فيها الشاعر قصيدته وباقي القصائد التي نظمها خلال حياته.

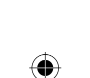
وفي ضوء هذه الإشارة، سنحاول استعراض أبرز سمات العصر الذي عاش فيه الشاعر. وسنركز على الأوضاع السياسية وعلى الحياة الفكرية التي ارتبطت بها أيما ارتباط.

---

(1) لا يأخذ هذا الرقم في الحسبان الجزر التابعة للبرتغال. وعن مساحة البرتغال وجغرافيتها بشكل عام انظر يسري عبدالرازق الجوهري، جغرافية البحر المتوسط، دار المعارف، القاهرة، 1978، ص 113 - 133. وفرانسوا كَيشار.

François Guichard, Géographie du Portugal, Paris, Masson, 1997

(2) انظر المعطيات التي يتضمنها الموقع: www. tageo. com.





ولا بأس من التذكير، بأن عصر ابن مقانا أضحى اليوم جد معروف لأنه شكل موضوع مؤلفات أنجزها المشتغلون في حقل البحث التاريخي. كما توقف عنده مليًّا عدد من المشتغلين في حقل الأدب الذين اهتموا بتحقيق ونشر دواوين شعراء القرن الخامس الهجري. وقد تناول أحدهم خصائص هذا العصر في كتاب مستقل[1].

ولعل أبرز تلك الخصائص، التجزئة السياسية المتقدمة التي شهدتها الأندلس. إذا علمنا بأنها والجزائر التابعة لها، كانت جهات وكورًا منصهرة في كيان سياسي واحد. وأضحت خلال القرن المذكور مجالًا لأكثر من عشرين كيانًا سياسيًا. اصطلح على تسميتها بالممالك الطائفية.

وقد كانت كذلك. لأن كل طائفة من طوائف الأندلس العربية والبربرية، فضلًا عن طائفة الموالي الذين كانوا في خدمة القائمين بالأمر أيام الخلافة والحجابة العامرية، انتزت بعد سنة 400 هجرية بالجهة أو الناحية أو الكورة التي كان لها بها نفوذ. وأقامت بها مملكة. وقد ذكرنا أسماء بعضها عند التعريف بابن مقانا الأشبوني.

وسنعود في هذا الحيز للحديث عن تلك التي طاف بينها شاعرنا حسب الإفادات التي قدمها ابن بسام عند التعريف به. ونبدأ بمملكة بطليوس التي ولد وترعرع في ربوعها. ثم عاد اليها بعد رحلة البحث عن الذات. فاستقر فترة في حاضرتها. ثم «انصرف الى ربعه» ليمسك المزبرة.

كانت مملكة بطليوس تقع شمال جبال الشارات (سييرا مورينا). وكانت تمتد من غرب مملكة طليطلة حتى المحيط الأطلسي. وقد شمل نفوذ ملوكها رقعة شاسعة من الأرض. تمثلت في معظم تراب البرتغال وبعض أراضي اسبانيا. وكانت

---

(1) نعني هنا جمعة شيخة وكتابه، عصر ابن زيدون، منشورات مؤسسة البابطين، الكويت، 2004.





تقع بها عدة مدن من بينها بطليوس قاعدة المملكة، وماردة ويابرة وأشبونة وشنترين وشنترة وقلمرية وبازو.

يفيدنا ابن بسام نقلًا عن ابن حيان أن أحد الفتية العامريين، يدعى سابور، انتزى بها عند اندلاع الفتنة سنة 400 هجرية[1]. وظاهره، أحد أعيان بني الأفطس، وهو عبدالله بن محمد بن مسلمة، الذي شغل منصب وزير، فأجاد تدبير الشؤون. ونجح في الاستبداد بسابور، ثم أصبح الحاكم الفعلي للإمارة بعد وفاة هذا الأخير وتسمى بالمنصور، وضبط أمور بطليوس التي أضحت في عهده إحدى أقوى وأكبر الممالك الطائفية، لا تضاهيها قوة سوى مملكة اشبيلية التي أقامها بنو عباد. وكانت تنتمي بدورها لغرب الأندلس، ولذلك كان من المنتظر أن يندلع الصراع بين المملكتين، خاصة وأن بني عباد سلكوا سياسة توسعية على حساب جيرانهم منذ عهد أبي القاسم محمد بن اسماعيل[2].

وحين توفي عبدالله بن محمد المنصور في جمادى الأولى سنة 437 هجرية، تولى الحكم ابنه أبوبكر محمد الذي تلقب بالمظفر. وجعل من بطليوس مملكة قوية ضاهت مملكتي اشبيلية وطليطلة. ولكنه قضى فترة طويلة من حكمه في حروب ضد بني عباد[3]. ولم تضع تلك الحروب أوزارها الا في ربيع الأول سنة 443 هجرية، بعد توقيع معاهدة صلح بين المملكتين[4]. وخاض بعدها وقائع محدودة نسبيًّا ضد قوات طليطلة. وتزامنت مع تلك الوقائع وتلتها وقائع ضد

---

(1) انظر، ابن بسام، الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الثاني، ص 641. وابن الأبار، الحلة السيراء، الجزء الثاني، ص 96. وسابور المذكور هو «أحد صبيان فائق الخادم. الذي كان بدوره أحد فتيان الحكم «المستنصر بالله».

(2) انظر رواية ابن حيان في الوضوع عند ابن بسام في كتاب الدخيرة، القسم الثاني، المجلد الأول، ص 26 – 27.

(3) انظر كذلك رواية ابن حيان في كتاب الذخيرة، ص 33 وما يليها

(4) المرجع السابق نفسه، ص 36.



المسيحيين تساقطت فيها مدن وحصون، أهمها قلمرية التي كانت إحدى أعظم مراكز البرتغال الحالية.

ورغم شهرة أبي بكر محمد المظفر كفارس مقدام، اشتهر أيضًا بسعة اطلاعه وغزارة علمه. فقد نعته ابن بسام «بأديب ملوك عصره»[1]. ويتفق معظم مصنفي القرن الخامس الهجري، بأنه وضع مؤلفًا ضخمًا من عدة مجلدات عرف «بالمظفري». تناول فيه معارف شتى. ضاع مع الأسف. ولم تصلنا منه سوى شذرات ونقول في مؤلفات القرون الموالية، وزاد عن غزارة علمه بأن فتح أبواب بلاطه في وجه الشعراء والأدباء الذين وفدوا عليه من أنحاء بطليوس ومن غيرها، ومن بينهم أبوعبدالله محمد بن البنت الترجيلي وأبوعبدالله محمد بن صارة وشاعرنا ابن مقانا الأشبوني الذي ذكره في الشطر الأول من البيت الأخير من قصيدته العينية.

وبعد وفاة أبي بكر محمد المظفر سنة 461 هجرية، تولى الحكم ابنه يحي الذي تلقب هو الآخر بالمنصور، ولكن حكمه لم يدم فترة طويلة، فقد عاجلته المنية سنة 464 هجرية، فخلفه على عرش بطليوس أخوه أبومحمد عمر الذي تلقب بالمتوكل على الله، وعاد بلاط بطليوس خلال فترة من حكمه الى سالف عهده قبلة للشعراء والأدباء، وقد تزامنت تلك العودة مع فترة سلم ورخاء عمت المملكة، قبيل أن تصبح عرضة لغارات المسيحيين بزعامة ألفونسو السادس.

وقبل أن يعود ابن مقانا الى مملكة بطليوس، كان عند خروجه منها، وهو شاب، قد اتجه فيما يبدو الى سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى.

ويفيدنا ابن حيان بأن هذا الثغر كان خاضعًا قبيل مطلع القرن الخامس الهجري لنفوذ بني تيجيب من خلال أحد أقطابهم، وهو منذر بن يحي الذي كان

(1) الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الثاني، ص 640.



مجرد جندي وارتقى أواخر عهد المنصور بن أبي عامر الى منصب القيادة[1]. فأقره سليمان المستعين بالله على حكم سرقسطة. وحين اندلعت الفتنة استطاع أن يستقل بها، وضم إليها تطيلة وطرطوشة، ونجح في توطيد دعائم ملكه بفضل دهائه وحنكته. وكذلك بفضل سياسة المهادنة التي نهجها تجاه زعماء الممالك المسيحية، فأضحت قاعدة مملكته تضاهي قرطبة أم المدائن أيام خلافة بني أمية[2].

وبعد وفاته سنة 414 هجرية، خلفه ابنه يحي الذي تلقب بالمظفر، ولكن فترة حكمه لم تدم أكثر من ست سنوات، حيث وافته المنية سنة 420 هجرية، فخلفه على حكم سرقسطة ابنه منذر بن يحي الذي تلقب بالحاجب معز الدولة، ودام حكمه عشرة أعوام انتهت بمقتله في مطلع شهر ذي الحجة سنة 430 هجرية، وانتقل حكم سرقسطة بعده لبني هود[3].

ومنذر بن يحي المذكور هو الذي قال فيه ابن مقانا الأشبوني قصيدة مطلعها:

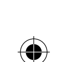
[المتقارب]

لِمَـــنْ طَـلــلُ دارِسٌ بــالـلَّـوى
كـحـاشِـيـةِ الـبـرَدِ أو كَـالـرَّدا[4]

ومن المحتمل أن يكون قد وقف بين يديه في بحر السنة التي قتل فيها.

---

(1) انظر كتاب الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص 180.
(2) المرجع السابق نفسه، ص 181.
(3) انظر الرواية المتعلقة بمقتله وبحيثيات انتقال الحكم الى بني هود عند أبي العباس أحمد بن محمد ابن عذاري المراكشي (كان حيًّا سنة 712هـ) في كتاب البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، حققه وضبط نصه وعلق عليه، بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2013، المجلد الثاني، ص 427 وما يليها.
(4) وردت القصيدة في كتاب الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الثاني، ص 788 – 790.





ومن سرقسطة، شد ابن مقانا الرحال الى دانية التي كان بحكمها مجاهد العامري منذ سنة 405 هجرية. ولا ندري متى حل بها؟ وكم أقام بها؟

والراجح، أن رحلته إليها تمت بعد ذي الحجة من سنة 430 هجرية، تاريخ مقتل المنذر بن يحي كما ذكرنا، وقد يكون ابن مقانا أقام بدانية حتى سنة 436 هجرية، تاريخ وفاة ملكها مجاهد العامري.

ولا بأس من التذكير بأن هذا الأخير كان واحدًا من الفتية العامريين الذين غادروا قرطبة عند اندلاع الفتنة واتجهوا صوب شرق الأندلس، ونجح في السيطرة على دانية[1]، وتلقب بالموفق بالله، وقد آزره في تحقيق مسعاه، فقيه عربي شهير هو أبوعبدالرحمن عبدالله بن عبيدالله المعيطي.

واشتهر مجاهد العامري، كأبي بكر المظفر، بكونه كان أميرًا في البحر وأديبا في البر، لم تشغله الحملات البحرية الكثيرة التي خاضها عن مجالسة العلماء والأدباء.

والراجح، حسب رواية ابن حيان، أن مجاهد العامري كان ميالًا الى علوم اللغة وعلوم القرآن والقراءات وما إليها[2]، ولذلك رحل إليه عدد من الفقهاء من قرطبة ومن غيرها.

وارتبط اسمه باسم عدد من أقطاب الفقه أمثال أبي الحسن علي بن إسماعيل، المعروف بابن سيده وأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني وأبي عمر يوسف بن عبدالله النمري، المعروف بابن عبدالبر وأبي العباس أحمد بن رشيق.

---

(1) المرجع السابق نفسه، القسم الثالث، المجلد الأول، ص 23. والبيان المغرب، المجلد الثاني، ص 411.
(2) وردت الرواية في كتاب الذخيرة، القسم الثالث، المجلد الأول، ص 23 وفي كتاب البيان المغرب، المجلد الثاني، ص 412.





وعلى العكس من ذلك، لا تقرن المصنفات الأدبية اسم أحد الشعراء باسم مجاهد، لأنه كما يقول ابن حيان: كان «أزهد الناس في الشعراء». بل يزعم أنه كان ينكر عليهم نظمه، وربما يقصد أن مجاهد كان يرفض أن يمتدحه الشعراء.

ورغم ذلك، مدحه ابن مقانا الأشبوني بقصيدة يقول في بيت منها:

[المتقارب]

كـــأن الـــثـــريّـــا بـــهـــا رايـــةٌ

يـــقـــود المـــوفـــق أبـــطـــالـــهـــا[1]

ثم غادر ابن مقانا الأشبوني دانية الى بلنسية التي قدر لها أن تقع منذ سنة 401 هجرية غنيمة بين يدي فتيين عامريين. يدعى أحدهما مظفر والآخر مبارك، وهما من موالي عبدالملك المظفر ابن المنصور بن أبي عامر، وكانا قبل اندلاع الفتنة «يتوليان وكالة السقاية» أيام ولاية عبدالرحمن بن يسار لبلنسية[2].

وقد أحكما قبضتهما على المدينة. وقاما بتحصينها، حسب إفادات ابن حيان، فارتفع عنها طمع الجيران، وساد في ربوعها الأمن فقصدها عدد من الموالي والعبيد الذين كانوا منتظمين في سلك الجندية أيام المنصور بن أبي عامر، كما قصدها كثير من الناس من عدة مدن بما في ذلك قرطبة. فاقتنى بعضهم الضياع وامتهن عمارة الأرض. بينما انخرط بعضهم الآخر في طوائف الحرفيين[3].

وعلى غرار ملوك الطوائف، شيد مظفر ومبارك قصورًا فخمة، وأقاما المنيات. واتخذا الضياع والمستخلصات التي صادرا بعض مساحاتها من ممتلكات الفلاحين البسطاء[4].

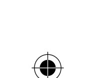
---

(1) وردت القصيدة في كتاب الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الثاني، ص 796.

(2) انظر كتاب الذخيرة، القسم الثالث، المجلد الأول، ص 14. وكذلك كتاب البيان المغرب، المجلد الثاني، ص 415.

(3) الذخيرة، القسم الثالث، المجلد الأول، ص 17. وكتاب البيان المغرب، المجلد الثاني، ص 415.

(4) الذخيرة، القسم الثالث، المجلد الأول، ص 19.





وتوفي مظفر. وانفرد مبارك بحكم بلنسية فترة قصيرة، حيث قضى صريعًا من على فرسه سنة 408 هجرية، فخلفه على الحكم لبيب أحد الفتية العامريين الذي كان يحكم طرطوشة، ولكنه لم يتمكن من بسط سيادته على مملكة بلنسية، فشاركه في حكمها مجاهد العامري صاحب دانية الذي نجح بعد فترة في إزاحة لبيب. ولكن حكمه لبلنسية لم يدم طويلًا، حيث قام ضده عدد من الفتيان العامريين الذين كان لهم نفوذ في المملكة.

ونادوا بأحد سادتهم، وهو عبدالعزيز بن عبدالرحمن المنصور، ملكًا على بلنسية سنة 411 هجرية[1].

ورغم الاضطرابات الداخلية التي كانت تشهدها بلنسية بين فترة وأخرى. ورغم الغارات التي شنها مجاهد العامري ضدها سعيًا منه لضمها لحظيرة مملكته، فقد استطاع عبدالعزيز بن عبدالرحمن أن يوطد دعائم ملكه. وظل على رأس بلنسية أربعين سنة حتى وفاته سنة 452 هجرية[2].

ويحتمل أن يكون ابن مقانا الأشبوني قد زار بلنسية في بحر سنة 435 هجرية، ثم غادرها خلال السنة ذاتها أو في مطلع السنة الموالية في اتجاه طرطوشة التي كان يمني النفس بنيل أعطية من صاحبها الفتى العامري مقاتل، ولكنه منع من دخول المدينة، فكتب الى مقاتل قائلًا:

[البسيط]

إن كان واديك نيلًا لا يجاز به

فما لنا قد حرمنا النيل والنيلا

إن كان ذنبي خروجي من بلنسيةٍ

فما كفرتُ ولا بدّلتُ تبديلا

(1) المرجع السابق نفسه، القسم الثالث، المجلد الأول، ص 251. والبيان المغرب، المجلد الثاني، ص 418.
(2) المرجع السابق نفسه.





«هـــي المـقــاديــر تجـــري فــي أعـنـتـهـا»

لـيـقـضـي الـلــه أمـــرًا كــان مفعولا[1]

واتجه ابن مقانا صوب مالقة التي كانت خلال زيارته لها تحت حكم ادريس بن يحي بع علي بن حمود الذي اعتلى العرش سنة 434 هجرية كما ذكرنا.

ولا بأس من الإشارة الى أن هذا الأخير ينحدر من أسرة بني حمود التي سيطرت على مالقة في سياق أحداث الفتنة.

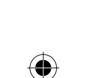
وتفيدنا مصادر القرن الخامس الهجري، بأن أحد زعماء الأسرة، وهو علي ابن حمود، كان أميرًا على سبتة، فاسنفر عددا من الفرسان وعبر بهم المضيق الى الأندلس بدعوى أنه أتى لنصرة الخليفة هشام بن الحكم بن عبدالرحمن[2]. فسانده بعض الزعماء، والتف حوله عدد من الناس.

واستولى على مالقة، ثم اتجه نحو قرطبة، وحارب سليمان المستعين، الذي كان خليفة آنذاك، وهزمه وأحكم سيطرته على قرطبة، وأعلن نفسه خليفة باسم الناصر لدين الله[3]، ولكنه لم يحكم أكثر من سنة وبضعة أشهر.

حيث قتله خدامه الصقالبة بالقصر في مطلع ذي القعدة سنة 408 هجرية[4]. فخلفه أخوه القاسم وتلقب بالمأمون، ولكن فترة حكمه لم تدم إلا ثلاث سنوات وبضعة أشهر، إذ قام ضده ابن أخيه يحي بن علي الذي نجح في إعادة الحكم لسلالة علي بن حمود. وأعلن نفسه خليفة، وتلقب بالمعتلي، غير أنه لم يتمكن من فرض سلطته على قرطبة التي خرج منها في ذي القعدة سنة 413 هجرية، وعاد العم المطاح به لحكمها مرة أخرى[5].

---

(1) وردت الأبيات في كتاب الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الثاني، ص 790.
(2) انظر جذوة المقتبس للحميدي، ص 40. وكتاب البيان المغرب، المجلد الثاني، ص 386..
(3) المرجع السابق نفسه.
(4) الحميدي، جذوة المقتبس، ص 42. وابن عذاري، البيان المغرب، المجلد الثاني، ص 387.
(5) انظر الحميدي، جذوة المقتبس، ص 43 وابن عذاري، البيان المغرب، المجلد الثاني، ص 395.





ولكن حكمه لها لم يدم هذه المرة غير سبعة أشهر، لم يستطع خلالها مواجهة الأخوين يحيى وادريس ابني علي بن حمود اللذين قويت شوكتهما. فغادر قرطبة وحاول اللجوء الى إشبيلية التي امتنع أهلها عن إيوائه، والتحق بشريش التي لم ينعم بالاستقرار بها.

فألقى الأخوان عليه القبض وظل رهن الاعتقال حتى مقتله سنة 431 هجرية[1].

ولم يتمكن يحيى بن علي بن حمود من بسط سيطرته على قرطبة سوى حوالي سنة ونصف. فوقعت تحت سيطرة قوى أخرى محلية. واقتصر حكمه، منذ سنة 413 هجرية، على مالقة إلى أن قتل في مطلع شهر محرم سنة 427 هجرية[2].

وحدث فراغ في السلطة في مالقة، فالتمس أعيانها الحموديون من ادريس ابن علي، وهو أخ يحيى القتيل، وكان يحكم سبته وطنجة، الانتقال لحكم مالقة والتنازل عن سبتة لفائدة ابن أخيه حسن بن يحيى. فاستجاب لهم. ونودي به ملكا على مالقة. وظل يحكمها باسم المتأيد بالله حتى سنة 431 هجرية[3].

وعين بعض المتنفذين يحيى خلفًا لأبيه ادريس بن علي على حكم مالقة. ولكنه لم يحكمها طويلًا. إذ سرعان ما قام ضده الحسن بن يحيى بن علي، الذي فتك به وتولى حكم مالقة باسم المستنصر بالله. ولم يحكم أكثر من سنتين. إذ توفي سنة 434 هجرية.

فاعتقل أحد المتنفذين أخاه ادريس بن يحيى سعيًا منه لإقصاء العلويين والانفراد بحكم مالقة. ولكنه لم ينجح في مسعاه.

---

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، ص 43.

(2) انظر الحميدي، جذوة المقتبس، ص 45.

(3) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.



فقد فتك به أنصار ادريس بن يحيى. وأخرجوا هذا الأخير من معتقله وبايعوه[1]، لأن «خلافة الله سمت نحوه» وفق تعبير أبي محمد غانم بن وليد المخزومي في قوله:

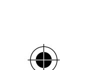
[السريع]

استقبلَ المُلْكُ إمامَ الهدى
في أربعٍ بعد ثلاثينا
خلافة الله سمت نحوه
وهو ابن خمس بعد عشرينا
إني لأرجو يا إمام الهدى
أن يملك الدنيا ثمانينا
لا رحم الله امْرأً لم يقل
عند دعائي لك: آمينا[2]

فحكم «إمام الهدى» مالقة وسبتة باسم العالي بالله، بين سنتي 434 و438 هجرية. ثم بين 444 و446 هجرية. وقد ولج بلاطه خلال فترتي حكمه ثلة من الشعراء من بينهم ابن دراج القسطلي وأبوبكر عبادة بن ماء السماء وأبومحمد غانم ابن وليد المخزومي وأبوعبدالله محمد بن السراج المالقي وابن مقانا الأشبوني الذي نظم في مدحه قصيدته النونية التي أوردنا مطلعها سابقًا. وهي القصيدة التي طبقت شهرتها الآفاق أكثر من الشهرة التي حظي بها ناظمها.

مما لا شك فيه أن ما أوردناه في هذه الصفحات يسلط بعض الضوء على الأجواء العامة التي عاش فيها ابن مقانا الأشبوني وغيره من الشعراء الذين

(1) لويس سيكو دي لوثينا، الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء، ترجمة عدنان محمد آل طعمة، مطبعة الشام، دمشق 1993، ص 42.
(2) أورد الأبيات ابن الأبار في كتاب الحلة السيراء، الجزء الثاني، ص 27.



أدرجناهم في فئة الشعراء الجوالين. وقد ذكرنا أسماء بعضهم ونحن نتحدث عن الممالك التي طاف بينها شاعرنا.

ويتضح كيف أن هؤلاء الشعراء كانوا يضطرون، تحت وطأة الحاجة، إلى مكابدة مشاق السفر والتطواف بين الممالك، والتملق للملوك.

وربما كان بعضهم يضطر الى تبني مذهب المملكة التي كان يقيم بها ردحًا من الزمن. كما فعل ابن مقانا عند مقامه بمالقة. فقيل بأنه كان متشيعا لآل البيت عليهم السلام[1].

وكان هم هؤلاء الشعراء، في نهاية المطاف، السعي لنيل حظوة، أو على الأقل نيل عطاء نقدي أو عيني. وحين كان يقدر لأحدهم نيل حظوة، كان يستقر ردحًا من الزمن في كنف الملك الذي من عليه بهذا الامتياز. وحين يفشل في تحقيق هذا المبتغى، أو تحول أسباب دون استقراره، كان يشد أمتعته في اتجاه وجهة أخرى.

وهذا كان قدر ابن مقانا الأشبوني الذي قضى فترة من حياته في الترحال. ولم يقدر له المكوث طويلًا في مالقة التي نال بها حظوة. وحين شاخ وتعب من السفر وسئم الاستجداء، اضطر الى العودة الى قرية القبذاق والاعتكاف على عمارة قطعة أرض لتحصيل قوته اليومي.

فماذا يمكن أن يقال عن هذا النشاط الذي أصبح يمتهنه شاعرنا؟.

****

(1) انظر مقال عدنان محمد آل طعمة، ابن مقانا، شاعر الدولة الحمودية، وقد سبقت الإحالة عليه.



الفصل الثاني

خصائص الزراعة وأهميتها

في القبذاق وفي سائر أقاليم الأندلس

كانت الزراعة تشكل عصب الحياة الاقتصادية في قرية القبذاق وفي قرى الغرب كما في باقي قرى الأندلس. وقد كانت كذلك في بلاد المغرب. غير أنها لم تكن نشاطًا خاصًّا بالقرى، بل مورست أيضًا في المجالات الحضرية، داخل أسوار المدن وفي ظهير تلك المدن، كما ذكرنا آنفًا. ولذلك تميز المجال الذي مورست فيه بكونه كان مجالًا مخضرمًا ريفيًّا - حضريًّا. خلافًا لأقاليم أوربا العصر الوسيط التي شكلت فيها الأرياف المجال الرئيس للزراعة[1].

وقد تزايدت أهمية النشاط الزراعي بالنسبة للقائمين على الأمر في الأندلس وبالنسبة لأفراد المجتمع خلال القرن الخامس الهجري. فأصبحت «قوام الحياة وقوت النفوس. ومن أعظم الأسباب وأكثرها أجرا» على حد تعبير الطغنري[2]، أحد علماء الفلاحة المعاصرين لابن مقانا الأشبوني.

فقد تميز هذا القرن فعلًا بتراجع المبادلات التجارية والأنشطة الحرفية[3]. فأضحت الزراعة تمثل أهم نشاط اقتصادي على الإطلاق.

---

(1) لمزيد من التفاصيل بهذا الخصوص، يمكن العودة للفصل التمهيدي من كتابنا الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، وجدة، مطبعة الجسور، 2007.

(2) أبوعبدالله محمد بن مالك الطغنري (كان حيًّا سنة 480هـ)، زهر البستان ونزهة الأذهان، مخطوط رقم 1260D، قسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط، ورقة 2.

(3) انظر في هذا الشأن الفصل الثاني من كتاب امحمد بن عود، جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، مطبوعات الشويخ، تطوان، 1999. والفصل السادس من كتابنا الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، مطبعة الجسور، وجدة، 2007.





وكانت تمارس في مجال أخذ في التقلص تدريجيًّا بسبب الغارات وحرب الاسترداد التي مكنت مسيحيي شمال شبه جزيرة أيبيريا من استعادة مساحات من الأرض كانت في حوزة المسلمين.

وتبعًا لطبيعة الإقليم الذي تنتمي إليه قرية القبذاق، فإن الزراعة كانت تتم في مجال غير متصل الامتداد توزع بين سهول صغيرة المساحة أهمها سهل بلاطة وأحواض أنهار كثيرة المنعرجات ومنحدرات صخرية. وينطبق هذا الأمر على سائر أقاليم الأندلس.

1 - أشكال الاستغلاليات:

كان المجال المستثمر مؤلفًا من عدة استغلاليات متفاوتة المساحة ومتداخلة على شكل لوحة فسيفساء. وكانت هذه الاستغلاليات عبارة عن وحدات اقتصادية اختلفت الأطراف المالكة لها. فمالكوها كانوا من المسلمين ومن أهل الذمة. وكانوا ينحدرون من أصول عرقية مختلفة. ويتوزعون بين ذكور وإناث. كانت أغلبيتهم تتألف من فلاحين. ولكن كان من بينهم أيضًا تجار وفقهاء وأدباء[1].

أما من حيث مساحتها ووضعها العقاري، فنميز في تلك الاستغلاليات، بين خمسة أصناف أو أنواع رئيسية. نوجز عنها الحديث كما يلي[2]:

يتمثل الصنف الأول في تلك الأراضي الكبرى الشاسعة المساحة التي كانت في حوزة الأسر الحاكمة في كل إمارة طائفية، وبعضها كان في حوزة الوزراء. وتشمل المنى أو المنيات، والأراضي المعروفة بالجنات السلطانية والضياع المنطوية في إطار المستخلصات.

(1) من بينهم على سبيل المثال، الوزير الكاتب أبومحمد عبدالله بن عبدالبر المتوفى سنة 458هـ. والشاعر المشهور إبن دراج القسطلي المتوفي سنة 421هـ. انظر كتابنا السالف الذكر، ص 126 - 127.

(2) لمزيد من التفاصيل بخصوص هذا الموضوع نحيل القارئ إلى الفصل الثاني من كتابنا السالف الذكر.





ويتمثل الصنف الثاني في أراضي الإقطاع. وهي قطع أرض كانت أحيانًا أقاليم منحتها السلطة الحاكمة لبعض القبائل والقوى الفاعلة في الساحة السياسية والعسكرية، أو انتزى بها واقتطعها لأنفسهم بعض كبار قادة الجند أو أشخاص من ذوي النفوذ.

وقد كانت أحيانًا أخرى قطعًا صغرى قدمها القائمون على الأمر، قبل قيام الممالك الطائفية أو بعد مراحل قيامها، لقادة الجند أو بعض أكابر القوم أو بعض حملة القلم مقابل الخدمة والولاء.

ويتمثل الصنف الثالث في تلك القطع الأرضية المنتشرة في الحواضر والأرياف، والتي كان يمتلكها بعض الوزراء وأرباب الخطط. كما كان يمتلك بعضها عدد من القضاة والفقهاء وبعض الأدباء وعدد من سكان الحواضر على مختلف انتماءاتهم الدينية والسوسيومهنية والفلاحون. وهي قطع متفاوتة المساحة طبعًا. بعضها صغير جدًّا، وبعضها كان يضاهي منيات الملوك والأمراء، ولكنها تشترك في كونها استغلاليات كانت تستثمر لإنتاج ما يساهم في إشباع الحاجيات.

ويتمثل الصنف الرابع في قطع الأرض التي كان بعض الخواص يحبسونها على المؤسسات الدينية كالمساجد، أو يجعلونها وقفًا على أفراد أسرهم أو على فئات اجتماعية، لاستغلالها والاستفادة من ريعها دون تغيير وضعها القانوني بالبيع أو الاستبدال أو التقسيم.

أما الصنف الخامس، فتمثله بعض الحيازات التي كانت تدخل ضمن ممتلكات هذه المملكة أو تلك. بعضها كان يقع في الحواضر وبعضها الآخر في الأرياف.

وهي عبارة عن مساحات خضراء (كانت تتخذ كمتنزهات عمومية) أو عبارة عن سبخات أو مروج تغلب عليها شعراء الأودية، أو عبارة عن فضاءات في مناطق وعرة ومتضرسة.






وفي جميع الحالات، كانت قطعًا تترك «مشاعًا» يستغلها عموم الناس. حيث كانت تلك الواقعة في الحواضر تتخذ كمتفجرات. بينما كانت تلك الواقعة في ظهير الحواضر أو في الأرياف تستغل للرعي.

تسمح المعطيات التي تتضمنها قصيدة ابن مقانا الأشبوني، وكذلك السياق الخاص الذي تم فيه ارتجالها، بالقول بأن قطعة الأرض التي كان يستثمرها شاعرنا، تندرج ضمن الصنف الثالث. فهي إذن استغلالية خاصة.

وبما أنها كانت صغيرة المساحة حسبما يستشف من المعطيات نفسها، فهي من نوع الاستغلاليات الخاصة الصغرى التي ورد الحديث عنها في مصنفات الفترة تحت عدة مسميات منها: الحقل والبستان والجنة والفدان[1].

وقد احتلت موقعًا مهمًّا في خريطة الملكيات العقارية خلال القرن الخامس الهجري. وانتشرت بالحواضر وقرى الأرياف.

ففي المراكز الحضرية كانت تلك الاستغلاليات منسجمة مع مورفولوجية وتضاريس المدينة. فهي تمتد عند نهاية حدود المجال المسكون الذي تشغله المنازل والمرافق الأخرى. وتمتد حتى مشارف الأسوار.

كما تمتد على ضفتي الأودية والأنهار. كما في مدينة بلنسية التي تقع في مستوى من الأرض (...) وهي على نهر جار ينتفع به ويسقي المزارع وعليه بساتين وجنات وعمارات متصلة[2]. «وقد تقع هذه الاستغلاليات في بعض الأحايين خارج أسوار المدينة حين تكون أراضي هذه الأخيرة متضرسة وتربتها غير صالحة

(1) يمكن العودة في هذا الشأن إلى كتب الجغرافية وكتب الفتاوى والنوازل التي ستحيل على نماذج منها في الهوامش اللاحقة.

(2) أبوعبدالله محمد بن محمد الإدريسي (توفي سنة 560هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، تحقيق مجموعة باحثين، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، بدون تاريخ، المجلد الثاني، ص 556.





للزراعة، كما في مدينة ألمرية، حيث «أكثر منابتها شيح (...) إلا ضفتا نهر بجانة الممتد كالحبل»[1]. لذلك فإننا نجد «(...) حول مدينة بجانة [المجاورة لها] جنات وبساتين ومتنزهات وكروم وأموال كثيرة لأهل المرية»[2].

وفي الأرياف، كانت الاستغلاليات الخاصة الصغرى منتظمة وفق حجم وشكل القرية وموقعها طبعًا. ولا شك أنها كانت متفاوتة العدد تبعًا للتباين الحاصل بين عدد المساكن التي تتألف منها كل قرية. فقد كانت بعض القرى تضم أربعة عشر مسكنًا، بينما كانت قرى أخرى تضم عددًا أكبر نسبيًّا[3]. وبالتالي، فإن أعداد تلك الاستغلاليات في كل قرية، كانت تتماشى مبدئيًّا مع أعداد المساكن. مع الإشارة إلى كون أن بعض أهل تلك المساكن لم يكونوا يملكون استغلاليات خاصة. وكانوا مجرد مزارعين يعملون عند بعض الملاكين العقاريين من أفراد الأرستقراطية أو عند فلاحين آخرين. كما هو الشأن بالنسبة «للحراث» الذي ذكره ابن بسام في حديثه عن اللحظة السابقة على ارتجال ابن مقانا للقصيدة.

وتفيد بعض كتب العقود والشروط، ككتاب «المقنع في علم الشروط» لابن مغيث الطليطلي، أحد فقهاء القرن الخامس الهجري، أن كل استغلالية من تلك الاستغلاليات الخاصة الصغرى كانت بمثابة وحدة انتاج ذات معالم واضحة وحدود معلومة. وكل عملية بيع أو قسمة أو هبة يكون موضوعها إحدى تلك الاستغلاليات، كانت تتم من قبل فقيه موثق وبحضور شهود.

(1) أبونصر الفتح بن خاقان، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، الجزء الأول، ص 147.
(2) الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، المجلد الثاني، ص 556.
(3) أورد هذه المعطيات أبوالوليد محمد بن أحمد بن رشد (توفي سنة 520هـ)، في كتاب الفتاوى، تقديم وتحقيق وجمع وتعليق المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، السفر الثاني، ص 783 - 784. كما أكدتها بعض الحفريات التي تمت في مواقع تابعة لبلنسية، انظر عنها:
Julio Navarro Palalazón, Excavaciones arqueológicas en la Cuidad de Murcia durante 1984, Servicio Regional de Patrimonio Historico, Murcia, 1987.

فيحرر الموثق عقدًا يسجل فيه كل المعطيات المساعدة على إبراز هوية ومعالم الاستغلالية. بدءًا بتسجيل أسماء المعنيين بعملية البيع أو القسمة أو الهبة، وموضع الاستغلالية، وموقعها وحدودها وأنواع المنشآت الموجودة بها، وكذلك أصناف المزروعات والمغروسات التي تشغل كل مساحتها، أو جزءًا منها، والمصدر الذي يزودها بالمياه. ثم ينتهي العقد بذكر أسماء الشهود الذين حضروا العملية وتاريخ حصولها.

وإذ لم توفر لنا المكتبة الأندلسية نماذج من تلك العقود، وإنما نماذج من صيغ العقود الواجب محاكاتها عند صياغة عقد حقيقي، فإنها وفرت لنا بعض المصنفات النوازلية التي تتضمن نوازل ومسائل يمكن من خلالها معرفة مواضع ومواقع عدد من تلك الاستغلاليات الخاصة الصغرى. كما يمكن من خلالها معرفة أسماء مالكيها وبعض الحيثيات المتعلقة بها.

وتفيد نماذج من تلك النوازل والمسائل، أن الاستغلاليات الخاصة الصغرى كانت تشكل ثروة عقارية خاصة في حوزة بعض الأفراد كما هو الشأن بالنسبة لاستغلالية ابن مقانا. وقد يشترك في ملكية إحداها شخصان لا توجد بينهما صلة قرابة[1].

وقد يشترك في ملكيتها زوج وزوجته. وقد يشترك في ملكيتها مجموعة أفراد ينتمون الى عائلة واحدة[2]. وكذلك كان يملك بعض تلك الاستغلاليات عدد من المنتمين لأهل الذمة[3].

(1) انظر فتاوى ابن رشد، السفر الأول، ص 332.
(2) المرجع السابق نفسه، السفر الأول، ص 194.
(3) انظر ديوان الأحكام الكبرى لابن سهل، ص 462. وص. 594.





وقد تنوعت الطرق التي استطاعوا الحصول بواسطتها على تلك الاستغلاليات. وتراوحت عمومًا بين الشراء والاستحواذ والإرث والصدقة أو الهبة.

لم تمدنا المصنفات التي عرفت بابن مقانا، ولا قصائده، بمعلومات تسمح بالتعرف على الطريقة التي آلت بها إليه تلك الاستغلالية. فمن المحتمل أن يكون قد ورثها عن أبيه. ومن المحتمل ايضًا أن يكون قد اشتراها. فهل اشتراها قبل عودته الى قرية القبذاق؟ أم اشتراها بعد عودته؟.

نطرح هذه الاحتمالات والأسئلة لأن مصنفات العصر تفيد بأن الأفراد من تجار وغيرهم تمكنوا خلال عصر الحجابة العامرية من اقتناء دور وجنات وبساتين. ويذكر ابن حيان في هذا الصدد أن بعض الأندلسيين استغلوا الرخاء واستتباب الأمن في عهد المنصور بن أبي عامر، «فتناغوا في المكاسب. وتحاسدوا في اقتناء الأصول (...) وغالوا في الفرش والأمتعة (...) فسمت أثمان ذلك في تلك المدة»[1].

والراجح أن تلك الحركة تراجعت بعد اندلاع أحداث الفتنة. وما استتبعها من صراع دامي وتراجع اقتصادي وديموغرافي. ولكن بعض عمليات اقتناء الأرض أخذت تتم هنا وهناك خلال كل فترة كانت تهدأ فيها العاصفة.

ولم يفت شيخ المؤرخين ابن حيان أن يعود الى المسألة ليؤكد بأن مثل هذه الظاهرة حدثت في بلنسية. فبعد ان انتزى بها مبارك ومظفر «سدّا عورة المدينة بسور أحاط بها (...) فارتفع الطمع عنها. ورحل الناس من كل قطر بالأموال إليها. وطمحت بسكناها الأمال. واستوطنها طائفة من جالية قرطبة القلقة الاستقرار. فألقوا بها عصا التسيار. وأجمل عشرتهم. فتبوّؤوا بها المنازل والقصور. واتخذوا البساتين الزاهرة والرياضات الناضرة. وأجروا بها المياه المتدفقة»[2].

---

(1) أورد النص ابن الخطيب في كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، القسم الثاني، تحقيق ايفاريست ليفي بروفانسال، دار المكشوف، بيروت، 1956، ص 84 - 85.

(2) انظر النص عند ابن بسام في كتاب الذخيرة، القسم الثالث، المجلد الأول، ص 17. وكذلك عند ابن عذاري في كتاب البيان المغرب، المجلد الثاني، ص 415.





وإذا كان الشراء يمثل الطريقة العادية والمشروعة التي مكنت معظم الملاكين من الحصول على استغلاليات صغرى في الحواضر الأندلسية، بما فيها حواضر غرب الأندلس كإشبيلية وبطليوس وشلب وشنترين والأشبونة، فإن عددًا منهم فعل ما قام به أولو الأمر في الممالك الطائفية، وذوو النفوذ من الخاصة، فزادوا في عدد استغلالياتهم وفي مساحتها عن طريق الترامي على أملاك الغير أو غصبها أو الاستحواذ عليها.

وهكذا، فإننا نعرف من خلال إحدى النوازل التي أفتى فيها ابن سهل أن شخصًا يدعى «ابن دهمة» كان يملك «جنة» في مدينة بياسة. اضطر للرحيل عنها بمعية أفراد أسرته أيام الفتنة الى سرقسطة التي توفي بها. وبعد مرور عدة سنين، عاد ابنه «عبدالله» الى بياسة فوجد جنة أبيه قد سطا عليها أحد الأشخاص واعتمرها. فرفع عبدالله دعوى في موضوعها. وأثبت المغيب والموت والوراثة. وأشهر عقد ملكية الأرض[1].

وبما أن الاستغلاليات الخاصة الصغرى تشكل جزءًا من الممتلكات العقارية للأسر التي تملكها، بغض النظر عن الطريقة التي آلت بها إليها، فإنها تنتقل بحكم القانون المنظم للإرث الى أعقاب رب الأسرة وأعقاب أعقابه. وهكذا، فإن عددًا من سكان حواضر وأرياف الأندلس، ألت إليهم بعض الاستغلاليات عن طريق الإرث. وهذا ما تفصح عنه كتب الفتاوى والنوازل في مواضع عديدة[2].

ومن المفيد الإشارة الى أن عددًا من الأفراد استطاعوا أن يصبحوا مالكين لاستغلاليات صغرى عن طريق «تصدق» آبائهم أو أمهاتهم عليهم بتلك الاستغلاليات

(1) ديوان الأحكام الكبرى، ص 429.

(2) يمكن العودة في هذا الشأن الى المعلومات الواردة في السفر الأول من فتاوى ابن رشد، ص 320 – 321 وص. 325 وص. 345.





التي منحت لهم كهبات. حسبما يستفاد من نازلة أفتى فيها ابن رشد في موضوع امرأة كانت تملك استغلالية بمملكة بني عباد تصدقت بها على ابن لها[1].

وبالمثل، استطاع بعض الإناث أن يصبحن مالكات عقاريات بمناسبة زواجهن. بعضهن قدم لهن آباؤهن استغلاليات زراعية (جنات) كنحلة[2]. وبعضهن قدم لهن الذين ارتبطوا بهن بعقد الزوجية، نصف مساحة استغلالية أو جزءًا منها كصداق (مهر). كما هو الشأن مثلًا بالنسبة لامرأة تزوجت في شلب. فساق إليها من تزوجها «نصف بقعة محدودة (...) تكون بينهما بنصفين»[3]. وأخرى تزوجت من رجل على «أرض مسماة. قد عرفتها ووقفت عليها»[4].

ومهما يكن من أمر، فإن طرق امتلاك استغلالية صغرى، كانت متنوعة. رغم أن الشراء مثّل فيما يبدو أكثر الطرق شيوعًا. وفي مجتمع ذكوري كالمجتمع الأندلسي، فإن أغلب الملاكين العقاريين كانوا من الرجال.

2 - نظم استثمار الاستغلاليات:

كانت الاستغلاليات الخاصة الصغرى عبارة عن وحدات إنتاج ذات طابع أسري كما ذكرنا. كان يسود فيها نظام الاستثمار المباشر (le faire valoir direct). بمعنى أن كل واحدة منها كان يستثمرها رب الأسرة بمعية أفراد أسرته. وقد يستعين بخدمات عامل أو عمال مزارعين أجانب عن الأسرة في مناسبات معينة كمناسبة قلب تربة جزء من الاستغلالية، أو عند حرثها في بداية الموسم الزراعي، أو بمناسبة عملية الحصاد أو جني المحاصيل.

---

(1) انظر كتاب فتاوى ابن رشد، السفر الأول، ص 293 - 294.

(2) انظر على سبيل المثال النازلة الواردة في الصفحة 94 من كتاب الأحكام لأبي الطرف عبدالرحمن الشعبي المالقي (توفي سنة 497هـ)، تحقيق الصادق الحلوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992.

(3) ابن رشد، فتاوى ابن رشد، السفر الأول، ص 224 - 225.

(4) المرجع السابق نفسه، السفر الأول، ص 608.





فابن مقانا الأشبوني كان يستثمر استغلاليته بنفسه كما يتضح من السياق الذي أورد فيه ابن بسام القصيدة، حيث يذكر أن الوزير الفقيه أبا عبدالله الفهري وجد ابن مقانا يمسك «بمزبرة» عندما قابله بقرية القبذاق. ويؤكد ذلك قول الشاعر في البيت السابع من القصيدة:

وأَصْبَحْتُ فِي قَبْذَاقَ أَحْصُدُ شَوْكَهَا

بِمِزْبَرةٍ رَعْشَاءَ نَابِيَةِ القَطْعِ

وكان ابن مقانا، شأنه شأن معظم الفلاحين الملاكين لاستغلاليات خاصة صغرى، يستعين أحيانًا بخدمات يد أجنبية. فقد ذكر ابن بسام عن اللحظة التي سبقت ارتجال القصيدة، أن ابن مقانا وضيفه «جلسا ينظران إلى حراث كان يحرث بين يدي ابن مقانا». ويحتمل أن يكون «الحراث» عاملًا أجيرًا يقدم خدماته مقابل أجر. وقد كان هذا الإجراء معمولًا به وتجيزه التشريعات[1]. كما يحتمل أن يكون الحراث مزارعًا يعمل لحساب ابن مقانا مقابل حصة معينة من الإنتاج، متفق عليها وينص عليها عقد مزارعة[2].

والجدير بالذكر، أن المستفيدين من الإقطاعات الممنوحة، ومالكو الاستغلاليات الخاصة الكبرى من وزراء وقضاة، وكذلك فئة من مالكي الاستغلاليات الخاصة الصغرى المنتشرة في الحواضر والقرى من تجار وأدباء، كانوا لا يستثمرون استغلالياتهم بأنفسهم. وإنما كانوا يعينون من يقوم باستثمارها لحسابهم بمقتضى عقد. قد يكون عقد مزارعة إذا أراد أحدهم زراعتها بنوع من أنواع الحبوب. وقد

(1) تجيز كتب الأحكام مسألة اعتماد إنسان على خدمات إنسان آخر مقابل أجر في حدود أوامر الله ونواهيه. انظر في هذا الشأن الجزء السابع، ص 3 وما يليها من كتاب المحلى بالآثار لابن حزم. وقد سبقت الإحالة عليه.

(2) عن عقود المزارعة انظر كتابنا الزراعة في الأندلس، ص 194 – 200.





يكون عقد مغارسة إذا أراد غراسة جزء من الاستغلالية بنوع من أنواع الأشجار المثمرة. وقد يكون عقد مساقاة إذا كان يرغب في القيام بري منتظم للمساحة التي تكسوها أشجار أو مقاثي، ولا يستطيع شخصيًّا القيام بذلك.

أما القائمون على الأمر في الممالك الطائفية، وأفراد أسرهم والمقربين منهم وبعض علية القوم من الخاصة، فكانوا يعهدون بالمنيات والمستخلصات التي كانت في حوزتهم لوكلاء يسهرون على تدبيرها. فيعينون في إطار مهامهم فرقًا من المزارعين[1]. يسندون إليهم المهام الواجب القيام بها حسب جدول الأعمال الزراعية.

3 - بعض أساليب وتقنيات العمل الزراعي:

كان ابن مقانا الأشبوني، شأنه شأن باقي الفلاحين وجميع الذين يملكون استغلاليات زراعية، يستثمر استغلاليته بهدف الحصول على محاصيل زراعية ومنتجات مختلفة سنتحدث عنها بعد حين. وبما أن حاجة أسرة شاعرنا، وكذلك حاجة أسر أولئك المالكين وسائر أفراد المجتمع، إلى تلك المحاصيل والمنتجات كانت أكيدة، فإن جميع المنتجين مباشرين أو غير مباشرين، كانوا يهتمون بها ويحرصون مبدئيًّا على إحداث أكبر قدر ممكن من التوازن بينها سواء من حيث درجة الاهتمام أو من حيث المساحة المخصصة لكل منتوج في قطعة الأرض المستثمرة.

ولتحقيق هذا الهدف، كان لزامًا عليهم اتباع أساليب معينة في العمل الزراعي. وكذلك اتخاذ مجموعة إجراءات والقيام بعدة تدابير كتهيئة المساحة المراد استثمارها لتؤدي وظيفتها الإنتاجية على أحسن وجه. وتختلف أهمية تلك الأعمال والإجراءات باختلاف أنواع المنتوجات المراد الحصول عليها.

(1) وردت الإشارة إلى فرق المزارعين تحت إسم «الجمل الضخمة من الرجال» في كتاب اللمحة البدرية لابن الخطيب، ص 24. وفي الجزء الأول من كتاب الاحاطة، ص 115.





فإذا كانت أحد أنواع الحبوب أو «القطاني»، فإن المساحة المراد استثمارها لا تحتاج عمومًا إلى أعمال تهيئة كبرى. وإذا كان يراد غرس تلك المساحة بأنواع من الخضراوات أو الكروم أو الأشجار المثمرة، فإنها على العكس من ذلك تحتاج إلى جهد كبير وإمكانيات مادية وتقنية لقلب تربتها وتسويتها وتنقيتها من الأحجار واجتثاث الأعشاب الضارة منها وربطها بالمصدر الذي سيزودها بمياه الري.

وبعد أعمال التهيئة، تأتي عملية بذر بذور وزراريع الخضراوات والقول أو غراسة أوتاد بعض الشجيرات. ثم تأتي عقب ذلك أعمال المتابعة والتعهد حتى بداية موسم جني الثمار وتخزين نصيب من المحاصيل كالفول أو الجلبان على سبيل المثال.

والجدير بالإشارة أن سلسلة الأعمال والإجراءات التقنية التي يقوم بها الفلاح أو المزارع بعد تهيئة المساحة المراد استثمارها تندرج ضمن جدول الأعمال الزراعية. وتتنوع بين أعمال وإجراءات تتطلبها المزروعات من حبوب وغيرها، وأخرى تستدعيها البستنة وأصناف المغروسات.

وهي كثيرة وبعضها معقد لا يسمح المجال باستعراضها بتفصيل، ولذلك سنكتفي بالحديث عن نماذج منها تتضمن قصيدة ابن مقانا إشارات بشأنها كعملية إزالة الأعشاب الطفيلية من المساحة المستثمرة ومن السواقي والجداول الموصلة للمياه.

فقد ورد في البيت السابع من القصيدة العينية قول الشاعر:

وأَصْبَحْتُ فِي قَبْذاقَ أَحْصُدُ شَوْكَهَا

بِمِزْبَرةٍ رَعْشَاءَ نَابِيَةِ القَطْعِ

وبغض النظر عن المعنى الذي يقصده بعبارة «أحصد شوكها»، فإن الشوك وكافة أنواع النباتات الشوكية، هي من فصيلة النباتات الطفيلية التي يتوجب إزالتها منذ إنطلاق عملية تهيئة المساحة المستثمرة. وتستمر عملية إستئصالها مع مراحل نمو المغروسات، ولذلك تتطلب الجهد والمواظبة، لأنها إذا تركت في المساحة



المستثمرة تزداد نموًّا وكثافة فتستهلك نصيبًا من المواد العضوية المخصبة للتربة على حساب المزروعات أو المغروسات. وإذا تركت في المجرى المائي الموصل لمياه السقي، أو حول جذع الشجرة أو في حوض المغروسات، فإنها تعيق جريان المياه بشكل عادي. كما تستهلك كميات منها.

وفي هذا السياق يذكر الطغنري بأن نبات النجم إذا تكاثر في الأرض أفسدها، لذلك أوصى بضرورة إزالته بالموالاة بحرث الأرض «بالسكة المبسوطة الأطراف»[1]، وزاد عنه ابن الخطيب، فذهب إلى التأكيد بأن «العشب الناجم (...) عشب غاصب (...) يعدم عند قوة الفلاح واضطلاعه وقيامه على الأرض، واتصال مباشرته (...) فإذا انشغل عنه لضعف أو مرض أو قلة ذات يد، ألفى غالبًا على الأرض مهلكًا للفلح مبيدًا للمال...»[2].

وفي ضوء هذه الحقيقة، نستطيع أن نتصور بأن العملية كانت تستنزف جزءًا من موارد ابن مقانا المالية. كما كانت تتطلب منه بذل جهد عضلي وهو الشاعر الذي أصبح يمتهن الفلاحة بعد أن شاخ ووهنت قواه.

وإذا كان ابن مقانا قد ربط عملية «حصاد الشوك» بالمزبرة، فالحقيقة أن عملية إزالة الأعشاب وجميع النباتات الطفيلية، تتم باستعمال المحراث وقلب تربة الأرض إذا كانت تلك الأعشاب والنباتات منتشرة وبكثافة في مساحة كبيرة نسبيًّا، أما إذا كانت منتشرة في حوض الشجرة أو في حوض تشغله بعض أنواع الخضراوات مثلًا، فإن إزالتها تتم باستعمال المسحاة[3]. ولا تستعمل المزبرة، وهي

(1) الطغنري زهر البستان...، مخطوط سبقت الإحالة عليه، ورقة 56.

(2) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني الذي سبقت الإحالة عليه، ص 240 - 241.

(3) جمعها: المساحي وهي عند ابن منظور «مجرفة من حديد». انظر مادة «مسحاة». ولمزيد من التوضيح نذكر أنها عبارة عن قطعة معدنية مشدودة في وسطها بمقبض خشبي كما هو الشأن بالنسبة للفأس أو البيلة. تستعمل لقاع الأعشاب الطفيلية من الحقول أو من حوالي الأشجار. وتستعمل عند السقي لتحويل مجرى المياه بسحب التربة وغلق الحوض بعد تزيده بالماء ثم فتح آخر ليتلقى بدوره المياه.





عبارة عن منجل صغير عن المنجل الذي يستعمل للحصاد، إلا لقطع بعض النباتات المستعصية مثل شجيرات السدر التي يتوجب قطع بعض أجزائها قبل اجتثات جذورها بواسطة المسحاة.

وبما أننا بصدد الحديث عن المزبرة، فنشير الى أنها كانت تستعمل لزبر أو تقليم فروع وأغصان الشجرة التي تبدو شاذة. فتسمح هذه العملية للشجرة بالنمو بشكل متناسق، كما تساعدها على الاستفادة من الهواء الذي يتخللها. ولإبراز منافع هذه العملية، فإن أبا الخبير الإشبيلي، أحد علماء الفلاحة الذي عاصر هو الآخر ابن مقانا والطغنري، يشبهها بعملية حلق شعر الرجل وتزيين شاربه، فتنبسط نفسه لذلك[1].

ومهما يكن من أمر، فإن عملية التعهد والمتابعة كانت تقوم على عدة إجراءات وتدابير متسلسلة كما أشرنا الى ذلك. تبدأ قبيل انطلاق الموسم الزراعي، وتتوقف ردحًا من الزمن بعد جني المحاصيل والثمار. ثم تتواصل مجددًا قبيل الموسم الموالي، وهكذا دواليك. فكانت لوحدها تعد ضربًا من ضروب المعاناة التي يكابدها الفلاح بهدف الحصول على إنتاج جيد من حيث الكم والكيف. وقد وصلت أصداء عملية تدبير الاستغلاليات، أو تدبير المغروسات الى جمهور الشعراء.

فعبر عنها ابن عمار في بيت من إحدى قصائده بقوله:

[المتقارب]

فــإن يُــجْــئِــكَ الــفَــتــحُ ذاكَ الأصــيــلُ

فــمِــنْ غـــرْسِ تــدبــيــر ذاكَ الشّجر[2]

---

(1) أبوالخير الإشبيلي (توفي عند نهاية القرن الخامس الهجري)، كتاب الفلاحة، حققته ونقلت نصه إلى الإسبانية خوليا مارية كراباثا برابو (Julia Maria Carabaza Bravo)، منشورات الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد، 1991، ص 149.

(2) وردت القصيدة التي تتضمن البيت في قلائد العقيان، ص 267. وفي كتاب شعر محمد بن عمار الأندلسي، قراءة وتوثيق وتعليق مصطفى الغديري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، 2001، ص 82.



وعلى العموم، كان الفلاحون يقومون بتدبير الأرض، وتدبير المغروسات، وكانوا يبذلون جهودًا ليشمل الإنتاج أنواع الحبوب والخضراوات والفواكه وثمارًا ومنتوجات أخرى.

وتفصح قصيدة ابن مقانا العينية، وخاصة البيت الأول منها والشطر الأول من البيت الخامس عن حقيقة مفادها أن الزراعة التي كانت سائدة في قرية القبذاق كانت زراعة مختلطة ومتعددة (Polyculture). لأنه ذكر في البيت الأول بأن استغلاليات القرية المذكورة تجود «بالزرع» و«البصل» و«القرع»:

أبَـا عَـامِـرَ الـقَـبْـذَاقُ لاَ تَـخْـل مِـنْ زرعٍ

وَمِــنْ بَـصـلٍ نَــزَرٍ وشــيءٍ مِــنَ الـقَـرْعِ

وأضاف في الشطر الأول من البيت الخامس قائلا: بأن «بها قلة من كل خير ونفعة».

وتؤكد كتب الفلاحة وكتب الجغرافيا بدورها، بأن النشاط الزراعي جمع في كافة أقاليم الأندلس بين الزراعة والغراسة والبستنة. فشمل بذلك مختلف أنواع الحبوب والقطاني والخضراوات والبقول وأنواعًا من الأشجار المثمرة، فضلًا عن منتوجات أخرى كالتوابل وقصب السكر والكتان.

ونستطيع أن نقول أيضًا، في ضوء المعطيات ذاتها، بأن الزراعة كانت مكثفة (Culture intensive). فرضت استغلال جميع المساحات الصالحة بهدف الحصول على منتجات مختلفة وكافية - مبدئيًّا - لتلبية الحاجيات.

ونود أن نذكر في هذا المقام، بأن ظاهرة الاختلاط لا تمثل شيئًا جديدًا خلال القرن الخامس الهجري. فقد كانت معروفة في شبه جزيرة إيبيريا منذ

العهد الروماني. وبعد الفتح الإسلامي استمرت جميع الفعاليات التي كانت تستثمر أموالها في النشاط الزراعي في الاهتمام بالمزروعات والمغروسات التي تعززت باستجلاب أصول وبذور وزراريع بعض الأنواع من المشرق الإسلامي. ونعني هنا على سبيل المثال النخيل والرمان والكتان وقصب السكر[1].

وقد تحدث علماء الفلاحة في مصنفاتهم عن ظاهرة الاختلاط بين المزروعات والمغروسات داخل الفضاء الواحد كما ذكرنا سابقًا. ولم يفت بعض الشعراء الحديث ضمنًا عن «الزراعة المختلطة». فهذا عبدالملك بن سعيد المرادي الخازن[2] يشير إليها في مقطوعة يصف فيها ناعورة. حيث يقول في أبيات منها:

[مخلع البسيط]

ناهيك ناعورة تعالتْ

على صفاتي مع اقتداري

يحملها الماء بانقيادٍ

وتحمل الماء باقتسارِ

تذكر طورًا حنين ناي

وتارة من زئير ضاري

تسقي بساتين حاويات

غرائب الروض والثمارِ[3]

---

(1) لمزيد من التفاصيل بخصوص هذا الموضوع يمكن العودة إلى إبراهيم القادري بوتشيش، أثر الاقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة (250هـ - 316هـ)، منشورات عكاظ، الرباط، 1992، ص: 112 - 113. وكذلك خالد بن عبدالكريم بن حمود البكر، النشاط الاقتصادي في الأندلس في عصر الإمارة (138هـ - 316هـ)، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض، 1993، ص: 127 - 128. وص. 132. والصفحات 135 - 137.

(2) أديب موصوف بالفضل وغزارة الشعر. توفي حوالي سنة 366 هجرية. انظر الحميدي، جذوة المقتبس، ترجمة رقم 632، ص 411.

(3) المصدر السابق نفسه والصفحة ذاتها.





أما عن ظاهرة الكثافة، فنستطيع القول، بأنها لم تكن على درجة كبيرة من الحدة قبل مطلع القرن الخامس الهجري، لأن المساحات الصالحة للزراعة كانت متوفرة بفعل الوحدة السياسية التي كانت تنعم بها الأندلس، وبفعل عمليات التوسع في اتجاه الشمال الإسباني. وقد جعلت تلك العمليات العديد من الأراضي تنضاف إلى المساحات المستثمرة.

أما بعد سنة 400 للهجرة، فإن الأراضي الصالحة للزراعة تم «توزيعها» بين مختلف الممالك الطائفية الناشئة. كما أن مساحات شاسعة منها، شرع مسيحيو الشمال في اقتطاعها لحسابهم في سياق الغارات وحرب الاسترداد[1].

ومن ثم، فإن المجال الصالح للزراعة أخذ في التقلص تدريجيًّا. فكان المنتجون المباشرون وغير المباشرين مضطرين الى إنتاج مختلف أنواع المزروعات والمغروسات في مساحات أقل. وبالإضافة الى ذلك، فإن النظام الجبائي الذي أصبح متبعًا منذ سنة 400 هجرية[2] والجزية والالتزامات المادية التي أصبح يفرضها زعماء وقادة الممالك المسيحية، جعلت القائمين بالأمر في الممالك الطائفية يثقلون كاهل الفلاحين.

فأضحى هؤلاء ملزمين ببذل جهد أكثر من خلال الضغط على الأراضي المستثمرة. ومن هنا نذهب إلى الاعتقاد بأن مجموع هذه العوامل والاعتبارات، تضافرت لإذكاء الاتجاه نحو شيوع الزراعة المكثفة خلال القرن الخامس الهجري.

وبالرغم من ذلك، فإن الاستغلال المكثف موسمًا بعد موسم للمساحة المخصصة للحبوب في أية استغلالية لم يكن ممكنا لما كان سيترتب عنه من إنهاك

---

(1) عن فصول حرب الاسترداد وعن المكاسب الترابية التي حققها المسيحيون من ورائها نحيل القارئ إلى الفصل الأول، صفحة 120 وما يليها من كتابنا الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري.

(2) تحدثنا بتفصيل عن أنواع وقيمة الجبايات وعن وقع الضغط الجبائي على الفلاحين وعلى عمارة الأرض في الفصل السابع من كتابنا السالف الذكر.





للتربة وتراجع للإنتاج. وبالتالي، فإن الضرورة كانت تقتضي الحرص على استراحة قسم من تلك المساحة فيما يتم استثمار القسم الآخر خلال الموسم نفسه. وبطبيعة الحال، فإن الاستراحة تسمح للقسم المستريح بالاحتفاظ بنسبة من المواد المخصبة التي يزيد من فعاليتها الروث الذي تخلفه الحيوانات وقطعان الماشية وهي ترعى في حدوده. بالإضافة إلى عمليات القليب المتكرر بشكل منتظم. وبذلك يكون هذا القسم جاهزًا للاستثمار خلال الموسم الموالي لفترة الاستراحة.

ومثل هذا المعطى يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن الأسلوب المعروف من قبل المختصين في علوم الزراعة بأسلوب الدورتين كان الأكثر شيوعًا في الأندلس شأنها في ذلك شأن باقي أقاليم البحر المتوسط. رغم أن مختلف المصنفات، وأهمها في هذا شأن كتب الفلاحة، لا تفصح عن طبيعة الأسلوب الذي كان يتبناه الفلاحون والمزارعون خلال القرن الخامس الهجري أو قبله. وإن كانت تتضمن إشارات قليلة تفيد بأن الأسلوب المشار إليه كان معمولًا به.

وبناء على مسألة التناوب بين الاستغلال والاستراحة، فإن المنطق يفرض أن ابن مقانا الأشبوني، وكل مالك لاستغلالية خاصة، كان يقسم استغلاليته لثلاثة أجزاء: جزء يزرعه بنوع من أنواع الحبوب، وجزء يستريح بالقليب. بينما يخصص الجزء الثالث لزراعة القطاني ولغراسة أصناف من البقول والخضراوات وأنواع الأشجار المثمرة.

وفي هذا الجزء، كان على الفلاح أو المزارع أن يحرص على إحداث نوع من «التناوب» و«التعايش» بين أصناف مختلفة من المغروسات والمزروعات. وهذا ما يوضحه حديث ابن مقانا في البيت الأول عن «الزرع» و«البصل» و«القرع». ويؤكد ابن عمار وجود هذا التعايش بين المغروسات والمزروعات داخل محيط الاستغلالية





الواحدة من خلال ذكره «للغرس» و«للزرع» في بيتين من قصيدة مطولة رد بها على أحد الأمراء. حيث يقول فيهما :

[الكامل]

وأردُّ ذِكْـــركَ مِـــنْ ثـنـائـي روْضــة
غَـــنَّـــاءَ حَـــالـــيَـــةَ بِـــنــورِ وِدادي

حـتّـى تَـبـيّـــن أنَّ غَــرْسَـــكَ قـد دنـا
لِجـنْـي وزرْعُـــك قـدْ أتـــى لِحصاد[1]

وتفيد بعض كتب الفلاحة والنبات فعلًا، بأن الفلاحين كانوا يغرسون أنواعًا من البقول في نفس الفضاء المخصص للأشجار المثمرة أو لشجيرات الكروم. كما كانوا يغرسون الباذنجان في نفس الفضاء المخصص لأشجار الرمان أو السفرجل[2].

4 - التوزيع الجغرافي للمحاصيل الزراعية:

يقتضي الموضوع في حقيقة الأمر استعراض مختلف أنواع الحبوب وأصناف الخضراوات والبقول والفواكه والثمار والمنتوجات الأخرى التي كانت تجود بها مختلف الاستغلاليات، كما يقتضي القيام بتوزيع جغرافي لها، وذلك بربط كل نوع أو صنف منها بأهم المناطق التي اشتهرت بإنتاجه مع الحرص على التطرق إلى كمية الإنتاج وإلى ديناميكة المردود في ضوء العوامل المؤثرة فيه. ومثل هذه القضايا يطول عنها الحديث، لذلك سنكتفي في موضوعها بعرض سريع.

---

(1) انظر البيتين ومجموع القصيدة عند مصطفى الغديري في كتاب شعر محمد بن عمار الأندلسي، مرجع سبق ذكره، ص 46 - 50.

(2) انظر ما أورده أبوعبدالله محمد بن إبراهيم بن بصال المتوفى حوالي سنة 498هـ. في كتاب الفلاحة، تحقيق وترجمة وتعليق خوسي ماريا مياس بييكروسا ومحمد عزيمان، منشورات معهد مولاي الحسن، تطوان، 1955، ص 62، وكذلك ما أورده أبوالخير الإشبيلي في مواضع متفرقة من كتاب عمدة الطبيب في معرفة النبات، تقديم وتحقيق محمد العربي الخطابي، منشورات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1990، قسمان.





كانت الحبوب تتصدر قائمة المحاصيل الزراعية من حيث الأهمية. فلا غرو إذا جعلها الطغنري أصل معاش الناس والبهائم وسر حياتهم[1]. بل ذهب ابن عبدون أبعد من ذلك حين جعل «الحنطة» أداة امتلاك المدائن والرجال وأساس كل نظام[2]. وقد كانا محقان في ذلك على اعتبار أن الحبوب شكلت دائمًا المادة الغذائية الأساسية لمختلف المجتمعات منذ ظهور الحضارات الزراعية الأولى. ومما لا شك فيه أن الأمر كان كذلك في الأندلس خلال عصر ابن مقانا، وقبله وبعده بطبيعة الحال.

ولا يختلف اثنان في القول بأن الحبوب كانت تدخل في تحضير معظم أصناف الأطعمة والمأكولات وعلى رأسها الخبز الذي لم يكن يفارق الوجبات. ومن هنا نفهم لماذا خصص ابن سهل حيزًا مهما من باب الاحتساب في كتاب « ديوان الأحكام الكبرى» لمعالجة قضية الغش في صناعة الخبز[3].

فتطرق لأوجه الغش وتحدث في نفس الوقت عن الاجراءات الزجرية الواجب اتخاذها في حق من يقومون بذلك. ونلمس نفس الأهمية التي يحتلها الخبز، ومن خلاله الحبوب طبعًا، في الكتب المتخصصة في مجال الحسبة، بحيث إن نماذج منها تقدم لنا المحتسب مسؤولًا يتجول في أسواق المدينة يرافقه أعوان. يحمل أحدهم الميزان لوزن عينات من الخبز للتأكد مما إذا كانت الكميات المعروضة منها للبيع والاستهلاك مطابقة للوزن المنصوص عليه[4].

---

(1) الطغنري، زهر البستان....، مخطوط سبقت الإحالة عليه، ص 200.

(2) أبوعبدالله محمد بن أحمد بن عبدون (كان حيًا أواخر القرن الخامس الهجري)، رسالة في القضاء والحسبة، حققها ونشرها إيفاريست ليفي – بروفانسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955، ص 5.

(3) انظر الصفحة 600 وما يليها. من كتابه الذي سبقت الإحالة عليه.

(4) انظر في هذا الشأن رسالة ابن عبدون التي سبقت الإحالة عليها، ص 20 وص 43، وكذلك ما أورده أبوالله محمد السقطي المالقي في كتابه في آداب الحسبة الذي نشره س. ج كولان وإيفاريست ليفي – بروفانسال بباريس سنة 1931، ص 9 – 11.





وكما هو الشأن اليوم، حيث إن الخبز الذي نتناوله في وجباتنا يصنع من عدة أنواع من الحبوب، كل نوع على حدة. وأحيانًا يتم الخلط بين نوعين قابلين لذلك، فقد كان الأمر كذلك خلال القرن الخامس الهجري وأيضًا قبله وبعده حسبما يتضح من الصفحات التي خصصها أبومروان عبدالملك بن زهر[1] «لذكر الأخباز». وفيها استعرض أنواع الخبز ورتبها حسب المادة المصنوعة منها وحسب أهميتها وقيمتها الغذائية.

وتأسيسًا على تلك المعايير يصنف الخبز المصنوع من الحنطة والمطبوخ في التنور أو الفرن في المرتبة الأولى[2]، ثم يتلوه خبز الشعير، وبعده خبز السلت، ثم خبز الدخن، ثم الخبز المصنوع من الجلبان وبعده خبز الشليم أو الشيلم[3] وبعد هذه الأنواع تأتي أنواع أخرى من الأخباز هي تلك المصنوعة من الجلبان أو الفول أو الحمص أو اللوبيا أو الأرز[4].

ويتضح من هذه المعطيات بأن الأخباز التي كان يتناولها الأندلسيون كانت متنوعة بتنوع المواد التي تدخل في صناعتها، وتشمل تلك المواد الحبوب وأنواعًا أخرى تشكل ما نسميه بالقطاني. وهذه الأخيرة كانت بدورها تندرج ضمن أنواع الحبوب. وما ورد عنها من معلومات في كتب الفلاحة[5] وفي كتاب السقطي المالقي وفي كتاب عبدالملك بن زهر، يوضح بأن التمييز الذي نقيمه اليوم بين الحبوب والقطاني لم يكن معمولاً به خلال القرن الخامس الهجري أو بعده.

---

(1) توفي سنة 557هـ، وهو صاحب كتاب الأغذية الذي حققته وقدمت له ونقلت نصه إلى الإسبانية الباحثة اكسبراثيون غارسيا سونثر (Expiracion Garcia Sanchez). وصدر بمدريد سنة 1992 ضمن منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ومعهد التعاون مع العالم العربي.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 10.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 11.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 12.

(5) وأهمها في هذا المقام كتابا ابن بصال والطغنري.

وبالتالي، فإن العدس والفول واللوبيا والجلبان وغيرها كانت تحتل مكانة هامة لا تقل عن مكانة القمح والشعير والذرة والشليم. لأنها تستكمل دور هذه الأخيرة في إشباع حاجيات فئات عريضة من المجتمع.

ورغم أن مختلف المصنفات تتضمن معلومات تسمح بالتعرف على أنواع الحبوب التي كانت تستهلك في الأندلس، فإنها لا تساعد مع الأسف على تقديم فكرة عن المساحة الإجمالية التي كانت مخصصة لها خلال القرن الخامس الهجري في مجموع التراب الأندلسي، أو في إحدى الممالك الطائفية، أو المساحة التي كانت مخصصة لأحد تلك الأنواع.

مع أننا نستطيع أن نقول جازمين بأن تلك المساحة كانت آخذة في التراجع تماشيًا مع تراجع مساحة الرقعة الترابية التي كان يشملها نفوذ المسلمين بين مطلع القرن المذكور ومتمه، وذلك بسبب حركة الاسترداد المسيحي التي كانت تعمل على تآكل تلك الرقعة.

ومع ذلك، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن المساحات المخصصة لزراعة الحبوب كانت شاسعة وتمثل نسبة مهمة تفوق نسبة المساحات المخصصة للخضراوات والبقول والأشجار المثمرة وأنواع المنتوجات الأخرى. وما نذهب إليه يبدو منطقيًّا إذا علمنا بأن الحبوب تمثل، كما سبق القول، المادة الأساسية في تغذية الإنسان والحيوان، ولأنها تتطلب مساحات شاسعة من الأرض.

وإذا كان من الصعب الجزم بأن كل أنواع الحبوب كانت منتشرة في جميع المناطق الأندلسية بدون استثناء، فالأكيد أن بعض الأنواع كانت منتشرة في جميع أراضي الممالك الطائفية[1]، لأن كل واحدة منها كان عليها أن «تتدبر» أمر تزودها من هذه المادة وتحقيق أمنها الغذائي. لأن زمن التكامل بين مختلف الكور التي تتشكل منها الأندلس كان قد وَلَّى.

(1) انظر ما تورده كتب الجغرافيا في الموضوع.





ولأن معظم الممالك الطائفية كانت تربط بينها علاقات عدائية لم تكن تسمح فيما يبدو، بأن تعوِّل الجارة على جارتها. وفي أسوء الأحوال، فإن أحد تلك الأنواع قد تكون زراعته حققت هذا الانتشار المجالي[1] في الأراضي التي تصلح تربتها لزاعة الحبوب، وكذلك في الأراضـي الرديئة والتي لا تسمح إلا بإنتاج كميات محدودة على اعتبار أن العمل الزراعي في كنهه يتمثل في قلب تربة الأرض وبذرها للحصول على نوع أو أنواع من الحبوب.

كما أن الفلاح، سواء كان في مملكة بطليوس أو في مملكة إشبيلية أو في مملكة سرقسطة أو في مملكة ألمرية.... كان يحرص طبعًا على إنتاج كميات، ولو ضعيفة حتى لا يظل دائمًا مرتبطًا بالسوق لتلبية حاجياته من هذه المادة الأساسية.

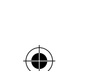
وبالرجوع إلى قصيدة ابن مقانا، نعلم بأن الحبوب كانت تمثل أحد عناصر المشهد الزراعي بقرية القبذاق حسب شهادة الشاعر نفسه من خلال قوله: «أبا عامر القبذاق لا تخل من زرع». ولكن استغلالياتها كانت تجود، مع الأسف، بكميات قليلة حتى وإن كان الموسم جيدًا:

فـمـا أرض قـبـذاق وان جـاد عـامـهـا

بـمـوفـيـة عـشـريـن مــن حـــزم الـــزرع

وخلافًا لاستغلاليات قرية القبذاق، فإن الاستغلاليات المنتشرة في فحص بلاطة، الواقع بين مدينتي الأشبونة وشنترين، كانت تجود بكميات أكثر حسب شهادة الإدريسي[2]. الذي يضيف بأن استغلاليات هذا الفحص كانت متخصصة في انتاج الحنطة التي كانت، حسب زعمه، تحصد أربعين يومًا بعد بذر البذور[3].

(1) نأخذ بمقولة «أضعف الإيمان» مع أن معظم المصنفات الجغرافية تورد الجملة التالية: «ومتى سافرت من مدينة إلى مدينة لا تكاد تمشي إلا في العمارة ما بين قرى وحصون ومياه ومزارع وبساتين».
(2) نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، المجلد الثاني، ص 549 – 550.
(3) المرجع السابق نفسه، ص 550.





وكان الكيل الواحد منها يعطي مائة كيل وربما زاد ونقص»[1]. ويؤكد واضع كتاب «ذكر بلاد الأندلس» بدوره أن مالكي الاستغلاليات الواقعة بظهير مدينة شنترين كانوا كالمصريين يحرثون أراضيهم بعد فيضان نهر آنة الذي يخترقها. فكان القفيز الواحد من القمح يعطي مائة قفيز وأحيانًا مائتين أو أقل[2].

وفي كورة تدمير يقع فحص شنقنيرة (Sanganera) الممتد على طول أربعين ميلا (ما بين 60 و80 كلم). كانت تجود به الحبوب التي حدد الزهري فصيلتها في القمح. وذكر أن الحبة الواحدة منه كانت تقدم عند نضجها ما بين ثمانين ومائة سنبلة، وفي كل سنبلة ثمانون أو مائة حبة[3].

أما الإنتاج السنوي في نفس الكورة، فكان يترواح حسب الزهري ما بين الخمسين والستين قفيزًا، وأحيانًا يصل إلى مائة قفيز حين يكون الموسم جيدًا[4].

وعلى غرار الاستغلاليات الواقعة في كورة تدمير، كانت كثير من الاستغلاليات بظهير قرطبة وبسهل القنبانية تجود بكميات من القمح والشعير، وكذلك الأمر في عدة استغلاليات ببعض الأقاليم التابعة لقرطبة مثل إقليم المدور وإقليم الصدف وإقليم بني مسرة وإقليم أولية السهلة[5].

---

(1) المرجع السابق والمجلد نفسه، ص 550.

(2) مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، تحقيق وترجمة لويس مولينا، منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ومعهد ميكال أسين، مدريد 1983، الجزء الأول، ص 53.

(3) أبوعبدالله محمد بن أبي بكر الزهري (توفي بعد سنة 560هـ)، كتاب الجعرافيا، تحقيق محمد حاج صادق Bulletin d'études orientales، المجلد 21، دمشق، 1968، ص 207

(4) المرجع السابق نفسه والصفحة نفسها.

(5) أبوالعباس أحمد بن عمر بن أنس العذري الدلائي (توفي سنة 478هـ)، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبدالعزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1965، ص 124 - 127





وفي مملكة بلنسية التي جمعت على حد تعبير العذري مزايا البر والبحر والزرع والضرع[1] كانت العديد من الاستغلاليات تجود بكميات من الحبوب، وخاصة في شاطبة التي اشتهرت بخصوبة تربتها ووفرة إنتاجها من القمح والشعير[2]. بينما اشتهرت أعمال أخرى تابعة لبلنسية بإنتاج كميات من الأرز[3].

وفي مملكة بني صمادح أيضًا كانت بعض الاستغلاليات تجود بأنواع من الحبوب رغم غلبة الجفاف على مناخها، ورغم قحولة الأراضي المحيطة بقاعدتها. وقد اشتهرت مناطق فيها مثل دلاية وبرجة بالحروث والمزارع منذ القدم[4].

والشيء نفسه ينطبق على مملكة غرناطة التي كانت عدة استغلاليات تقع وراء سور قاعدتها، تنتج كميات من القمح والشعير[5].

وفي ضوء هذا العرض السريع، نستطيع أن نؤكد مرة أخرى أن جميع الملاكين العقاريين في مملكة بطليوس، التي تقع بها قرية القبذاق، كما في الممالك الطائفية الأخرى، كانوا يعملون جاهدين بأنفسهم، أو يحثون المزارعين العاملين لحسابهم، على إنتاج كميات من الحبوب كافية لتلبية حاجيات أسرهم وحاجيات السوق. وعند عدم كفاية الإنتاج المحلي، كان لا بد من اللجوء إلى الاستيراد.

ومما لا شك فيه أن الإنتاج كان متفاوتًا من مملكة لأخرى، وأيضًا بين مناطق ونواحي كل مملكة على حدى. وهذا أمر جد طبيعي، لذلك نرى الجغرافيين منذ

(1) المصدر السابق نفسه، ص 18.

(2) المصدر السابق والصفحة نفسها وكذلك الإدريسي، نزهة المشتاق...، المجلد الثاني، ص 556.

(3) انظر مصنف أبي بكر أحمد بن محمد الرازي، (المتوفى سنة 344هـ)، وصف إسبانيا الذي حققه ونشره باللغة الفرنسية إيفاريست ليفي - بروفانسال في أحد أعداد مجلة الأندلس سنة 1953، ص 80.

(4) العذري، ترصيع الأخبار...، مصدر سبق ذكره، ص 86 وأبوعبدالله محمد بن عبدالمنعم الحميري (توفي حوالي سنة 727هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975، ص 20.

(5) انظر الإشارات الواردة في كتاب التبيان للأمير عبدالله بن بلقين بن باديس (توفي سنة 483هـ)، تحقيق وتقديم وتعليق أمين توفيق الطيبي، منشورات عكاظ، الرباط، 1995.





الرازي[1]. ينعتون بعض المناطق دون غيرها بأنها متخصصة في إنتاج الحبوب «التي لا نظير لها». ومن بين المناطق التي يتردد ذكرها في مختلف المصنفات تطيلة واستجة وطليطلة وتدمير ويبورة وطلبيرة.

واذا كانت الحبوب تشغل معظم مساحة الاستغلالية (لأن جزءًا منها يكون مزروعًا وجزءًا أخر يكون في استراحة)، فإن الملاكين العقاريين بوجه عام، وصغار الفلاحين بوجه خاص، ومن ضمنهم ابن مقانا، كانوا يهتمون أيضًا بإنتاج الخضراوات والبقول وبعض الفواكه. فكانوا يخصصون لها مساحة من الاستغلالية. كما كانوا يحيطونها بأهمية ربما تفوق الأهمية التي يولونها للحبوب. لأن هذه النتوجات تتطلب تدبيرًا جيدًا لتربة المساحة المخصصة لها كما ذكرنا ذلك من قبل. كما تتطلب عناية خلال فترات نموها، من قبيل تدمين التربة وتهويتها من حين لآخر وطرد الحشرات. وتتطلب فضلًا عن ذلك تزويدها بالمياه خلافًا للحبوب التي يترك أمرها لما تجود به السماء.

وبناء عليه، فإن الاستغلاليات المنتشرة في قرية القبذاق، ومن ضمنها استغلالية ابن مقانا، كانت تجود بكميات مما يسميه علماء الفلاحة «بخضر البقول» أو «البقول». ومن بينها البصل والقرع والجزر واللفت والباذنجان والكرنب والكراث والسلق.

وقد ذكر ابن مقانا في البيت الأول من قصيدته العينية «البصل والقرع». وربما كانت استغلاليات القرية تجود بكميات قليلة من الأنواع الأخرى، وبكميات قليلة أيضًا من الفواكه. في ضوء قول شاعرنا: «بها قلة من كل خير ونفعة».

ولا بأس من الإشارة الى أن الحاجة كانت تقضي توفير أنواع من هذه المنتوجات حتى ولو كان الإنتاج هزيلًا لأن تناولها يندرج ضمن التقاليد الغذائية.

(1) الرازي، وصف إسبانيا (النسخة الفرنسية) التي سبقت الإحالة عليها.





وإذا كان الإنتاج هزيلًا في قرية القبذاق، فقد كان وفيرًا في قرى أخرى. مثل قرى يبورة التي كانت على حد تعبير الإدريسي «أحسن البلاد بقعة. تجود فيها سائر أنواع البقول»[1]. وشنترين التي كانت منتشرة داخل مدارها الحضري وخارجه «مباقل خصبة تجود بمختلف أنواع الخضر»[2].

وفي أراضي تدمير أيضًا كانت الخضراوات لا تقل وفرة وجودة عن الحبوب. واذا صدقنا الزهري، فقد كانت بعض الاستغلاليات المنتشرة بها تجود بقرع كبير الحجم، حتى أن الواحدة منه اذا يبست، يمكن أن تسع قفيزًا قرطبيًّا من القمح[3]. وفي الاستغلاليات المنتشرة داخل بلنسية وفي قراها، كانت تجود جميع أصناف الخضراوات. وأن تميز من بينها الكرنب الذي كان لا يضاهى نظرًا لكبر حجمه[4].

وعلى ذكر الكرنب، تجدر الإشارة الى أن ورقة منه استعملت في احدى المناسبات كدعامة لكتابة رسالة نصية قصيرة بعثها أحد الملوك لوزيره يستدعيه لجلسة مدام. يذكر ابن بسام في هذا المقام أن المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس، كان يتجول يومًا ببستان. «فأخذ ورقة بقلة كرنب. وكتب إلى وزيره وكاتبه أبي طالب ابن غانم قائلًا:



[مخلع البسيط]

انهضْ أبا طالبٍ إلينا
واسقط سقوط النّدا علينا
فنحن عقدٌ بغيرِ وسطى
ما لم تكن حاضرًا لدينا[5]

(1) نزهة المشتاق، المجلد الثاني، ص 544.

(2) نفس المجلد والصفحة.

(3) انظر كتاب الجعرافيا، ص 207.

(4) المرجع السابق نفسه، ص 205.

(5) الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الأول، ص 652. وانظر كذلك الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، ص 144.





وكما كانت استغلاليات قرية القبذاق تجود بكميات من الخضراوات، فلا شك أنها كانت تجود أيضًا بكميات من الفواكه. رغم أن ابن مقانا لم يشر إليها في قصيدته. وتعزز ما نذهب إليه عدة قرائن: أولها أن إنتاج الفواكه كان يندرج ضمن اهتمامات عموم الفلاحين. ولذلك كانت الفواكه متنوعة ومتوفرة على مدار السنة.

ويذكر الرازي في هذا الشأن بأن بلد الأندلس «(...) تتصل فواكهه أكثر الأزمنة. وتدوم متلاحقة غير مفقودة»[1]. وفي أسوأ الأحوال، فإن أنواعًا معينة من الفواكه كانت تحظى باهتمام جميع المنتجين المباشرين وغير المباشرين. ونعني هنا التين والعنب.

ثانيها أن ابن مقانا قد يكون يعني الفواكه من خلال قوله بأن في القرية «قلة من كل خير ونفعة». وثالثها لأن بعض الشهود يفيدون بأن عدة استغلاليات في مملكة بطليوس كانت تجود فيها أشجار الفواكه الطرية كالتفاح والرمان والتين. يتحدث أبوالخير الإشبيلي عن وجود أنواع كثيرة من التفاح في الأندلس.

ويفيدنا بأن نوعًا منها كانت «تختص به ناحية شنترين وجليقية»[2]. ويؤكد الإدريسي أن «شنترين بها بساتين كثيرة وفواكه عامة»[3]. ويذكر ابن سعيد بدوره أن بعض تلك البساتين كانت تغطيها أشجار من التفاح «تجود بعينات كبيرة الحجم. حتى أن الدابة لا تستطيع أن تحمل منها أكثر من ثلاث حبات»[4]. ويبدو أنه لم يبالغ فيما ذهب إليه. لأن واضع كتاب «ذكر بلاد الأندلس» يذكر بدوره أن بعض البساتين الواقعة في ظهير مدينة الأشبونة كانت تنتج تفاحًا عظيمًا. دور الواحدة منه ثلاثة أشبار[5].

(1) وصف اسبانيا (النص الفرنسي)، ص 59. وكذلك المقري، نفح الطيب، المجلد الأول، ص 129.
(2) عمدة الطبيب في معرفة النبات، الجزء الأول، ص 119.
(3) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد الثاني، ص 550.
(4) المغرب في حلى المغرب، الجزء الأول، ص 415.
(5) مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، الجزء الأول، ص 51.





وبما أن استغلاليات كثيرة في مملكة بطليوس كانت تقع في مناطق متضرسة، فقد كانت تنمو بها الأشجار التي تجود بفواكه يابسة. ومن بينها الجوز والفستق والبندق واللوز والقسطل.

ويفيدنا صاحب كتاب «ذكر بلاد الأندلس» في هذا الشأن، أن ظهير مدينة شلب تقع به «رياضات وجنات» تغص بأشجار الصنوبر والجوز واللوز[1]. وعندما كانت تورق هذه الأشجار وتظهر نواويرها كانت تضفي جمالية على الفضاء الذي تتواجد به. فكانت تثير أحاسيس الشعراء. فقالوا فيها شعرًا. ومن بينهم أبوبكر يحي بن بقي[2] الذي كان يومًا بمنية الزبير. فأثار إحساسه سطرًا من أشجار اللوز قد اصطفت بشكل متناسق وتفتقت نواويرها فقال:

[البسيط]

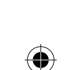
سطر من اللوز في البستان قابلني
ما زاد شيء على شيء ولا نقصا
كأنما كل غصنٍ كم جارية
إذا النسيم ثنى أعطافه رقصا[3]

5 - **العوامل المؤثرة في العمل الزراعي والإنتاج:**

بالعودة الى قصيدة ابن مقانا العينية، يتضح بأن استغلاليات قرية القبذاق، ومن بينها استغلالية شاعرنا، كانت تجود بمحاصيل مختلفة.

ويبدو أن ابن مقانا وغيره من الفلاحين، كانوا يتوقون للحصول على كل منتوج يمكن أن تقدمه قطعة الأرض المستثمرة. ولا شك أنهم كانوا يطمحون أيضًا أن

(1) مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، الجزء الأول، ص 54.
(2) شاعر. قرطبي الأصل. رحل بين اشبيلية وطليطلة. واشتهر بنظم الموشحات. توفي سنة 540 هجرية. انظر عنه ابن بسام، الذخيرة القسم الثاني، المجلد الثاني، ص 615 وما يليها.
(3) ورد البيتان في الصفحة 136 من مقالة مطولة لمحمد مجيد السعيد تحت عنوان: «ابن بقي القرطبي حياته وشعره»، مجلة المورد، فبراير 1978، ص 125 - 152.





يكون الإنتاج وفيرًا. ولتحقيق هذا المسعى كانوا يبذلون جهودًا مضنية. ويسخِّرون كل ما يتوفرون عليه من إمكانيات تقنية ومادية، ولكن الحصيلة لم تكن دائمًا في مستوى التطلعات حسبما يفهم من كلام ابن مقانا.

ومعنى ذلك أن العمل الزراعي والإنتاج كانت تؤثر فيه مجموعة عوامل. يمكن التمييز فيها بين عوامل خاصة وعوامل عامة. ونعتقد أن تلك العوامل هي التي كانت تجعل الإنتاج يتراوح بين «القلة» في قرية القبذاق والكثرة النسبية في قرية أخرى. وكما كانت تختلف القلة والكثرة من مجال لآخر، كانت تختلف من موسم لآخر وفق العوامل ذاتها التي نجمل عنها الحديث كما يلي:

تتمثل العوامل الخاصة أساسًا في نوعية البذور وفي التأثيرات البيومناخية المحلية.

فغني عن البيان أن البذور الجيدة تعطي إنتاجًا جيدًا في حالة توفر المعطيات الملائمة للعمل الزراعي، في حين أن البذور الرديئة تعطي إنتاجًا ضعيفًا. وقد يحدث ألا تنبت تمامًا حتى وإن توفرت تلك المعطيات حسبما يستفاد من بعض النوازل التي أفتى فيها فقهاء عصر ابن مقانا[1].

وقد تنبه بعض علماء الفلاحة لهذا الأمر. فنصحوا الفلاحين والمزارعين بضرورة اختيار وانتقاء البذور قبل القيام بعملية البذر[2].

---

(1) انظر على سبيل المثال النازلة الواردة في السفر الثاني، ص 985 من كتاب فتاوى ابن رشد الذي سبقت الإحالة عليه.

(2) يمكن العودة في هذا الشأن إلى ما أورده أبوعمر أحمد بن محمد بن حجاج (كان حيًّا سنة 470هـ) في كتاب المقنع في الفلاحة، تحقيق صلاح جرار وجاسر أبوصفية، تدقيق وإشراف عبدالعزيز الدوري، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، 1982، ص 11. كما يمكن العودة إلى النسخة الفرنسية من كتاب الفلاحة لأبي زكريا يحيى بن محمد بن العوام (توفي سنة 540هـ)، تحقيق وترجمة جون كليمان مولي (J. J. Clément Mullet)، دار بوسلامة، تونس، 1977، الجزء الثاني، ص 15.





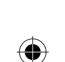
أما عن المعطيات البيومناخية المحلية التي يسود تأثيرها في رقعة ترابية ضيقة، فنقف على تجلياتها في تدمير، وفي قرطاجنة كما يستفاد من بعض كتب الجغرافيا، التي تذكر أن أحواز تدمير كانت تجود بها الحبوب. وكانت تعطي إنتاجًا وافرًا بفعل فيض النهر الذي يحدث مرة واحدة في السنة. فلا تحتاج بعده إلى مياه أيا كان مصدرها[1]. وفي قرطاجنة، التي اقترن اسمها بوفرة إنتاج الحلفاء بفعل سيادة الجفاف، يقع إقليم الفندون الذي كان» (...) الزرع فيه يثمر بسقي مطرة واحدة وإليه المنتهى في الجودة»[2]. وفي طليطلة، كان الهواء السائد يساعد على إنتاج كميات مهمة من الحبوب وذات جودة عالية، كما كان يسمح بتخزين نصيب منها لمدة طويلة جدًّا دون أن تتسوس أو تتغير[3].

أما العوامل العامة، فهي متنوعة ومتداخلة في نفس الوقت. تفصح قصيدة ابن مقانا عن كثير منها دونما حاجة للعودة إلى مصنفات الفترة. ومما لا شك فيه، أن تأثيرها كان قويًّا على العمل الزراعي وعلى الإنتاج. ونعتقد أن تظافرها هو الذي كان وراء ظاهرة قلة المردود التي عبر عنها ابن مقانا ضمنًا وعلانية في أكثر من بيت.

وهذه القلة لم تكن إحدى سمات المردود في قرية القبذاق وحدها، بل ميزت المردود في معظم قرى وأقاليم الأندلس خلال القرن الخامس الهجري. فماذا عن هذه العوامل؟.

نبدأ استعراضها بالحديث عن التربة فقد قامت الزراعة في قرية القبذاق، كما في سائر قرى وحواضر الأندلس في استغلاليات تراوحت تربتها بين الجيدة الخصوبة والمتوسطة الخصوبة والرديئة.

(1) الرازي، وصف إسبانيا (النص الفرنسي)، ص 70 والعذري، ترصيع الأخبار...، ص 1.
(2) الإدريسي، نزهة المشتاق...، المجلد الثاني، ص 559.
(3) الرازي، وصف إسبانيا (النص الفرنسي)، ص 82 وأبوعبيد الله عبدالله بن عبدالعزيز البكري (توفي سنة 487هـ)، كتاب المسالك والممالك، تحقيق وتقديم أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، تونس، 1992، الجزء الثاني، ص 907.



ولا شك أن التربة في قرية القبذاق كانت من النوع الرديء. وتفيد بعض الأبحاث الصادرة منذ بضع سنوات، أن القرية المذكورة تقع في مجال يغلب على تربته الكلس[1] خلافًا لتربة فحص بلاطة القريب من مدينة شنترين، ولذلك كان مردودها من الحبوب والخضراوات والبقول ضعيفًا حسبما يتضح من قول ابن مقانا في البيتين الأول والثالث والشطر الأول من البيت الموالي.

ومن هنا نفهم لماذا خص علماء الفلاحة التربة بفصول مطولة من مؤلفاتهم. ميزوا فيها بين مختلف أنواع التربات ودرجة خصوبة كل نوع. وبما أن التربات الفائقة الخصوبة أو المتوسطة الخصوبة لم تكن منتشرة في كافة الأقاليم، فقد كان على الفلاحين والمزارعين تعويض هذا النقض ببذل جهود عضلية كبرى.

تمثلت في عمليات القليب المتكرر للجزء المستريح من الاستغلالية. ونشر كميات من الزبول في المساحات المخصصة للمغروسات لمدها بالخصوبة.

والجدير بالإشارة أن جمهور الشعراء لم يفتهم الحديث عن أهمية الزبول في تدمين التربة وتحسين خصوبتها.

وهذا ما توضحه بعض النماذج الشعرية كقول ابن حمديس[2]:

[البسيط]

لا تُخرِجِ الشيءَ عن شيء يُوافِقُهُ

واقصَد بأمرِكَ في التّدبير مَقصَدَهُ

فالدّمنُ فيه لنبتِ الأرضِ مصلَحَةُ

ولو خلَطتَ به الكافورَ أفسدهُ[3]

---

(1) انظر كتاب:

Jacques Rey, Recherches géologiques sur le Crétacé inférieur de l'Estramadura (Portugal) , Serviços Geologicos de Portugal, Lisboa, 2010, p. 215.

(2) هو أبومحمد عبدالجبار بن محمد بن حمديس. وقد عرفنا به في هامش سابق.

(3) ورد البيتان في الصفحة 167 من ديوان ابن حمديس. النسخة التي حققها إحسان عباس.

ورغم الجهود المبذولة والتدبير الجيد، كان الفلاحون والمزارعون مجبرين على انتظار ما تجود به السماء لكي تنمو مزروعات ومغروسات الجزء المستثمر من الاستغلالية، لأن التساقطات تروي المزروعات والمغروسات كما هو معروف. كما أنها تزود الجداول والأنهار. وتثري الفرشة المائية.

ويبدو أن قرية القبذاق لم تكن تتساقط بها كميات كافية من الأمطار رغم وقوعها في مجال خاضع للمؤثرات البحرية، الآتية من البحر المحيط (أي المحيط الأطلسي). ويستفاد من عمليات الرصد الحالية أن متوسط معدل التساقطات في القرية لا يتجاوز 795 مم سنويًّا[1].

وتتميز هذه التساقطات بكونها متذبذبة من موسم لآخر. وقد كانت كذلك خلال القرن الهجري الخامس. ولذلك فإن إنتاج استغلاليات قرية القبذاق من الحبوب لم يكن يتجاوز عشرين من حزم الزرع في المواسم الجيدة كما ورد في بيت من قصيدة ابن مقانا.

ومن ثم، فإن تجاوز حالة قلة الإنتاج الناتجة عن رداءة التربة وندرة التساقطات كان يقتضي اللجوء إلى ري المساحات المخصصة للخضراوات والبقول والأشجار المثمرة. ويقترح ابن مقانا ألا يتم ذلك اعتمادًا على الوسائل المتداولة كالناعورات، وإنما اعتمادًا على «رحى سحابية». أي آلة ري لا تستمد حركتها من تدفق مياه المجرى المائي، وإنما من مصدر آخر مولد للحركة وهو الرياح حسبما يفهم من قول الشاعر في البيت الثاني:

وإنْ كنتَ ذَا عَزْمٍ فَلاَ بُدَّ مِنْ رَحًى
سَحَابِيَةٍ لاَ تَسْتَمِدُّ مِنَ النَّبْعِ

(1) انظر الموقع المتخصص في المعطيات المناخية climate - data : http: //fr. climate - data. org.



ولا نبالغ إذا قلنا بأن ابن مقانا كان بارعًا في قوله ومحقًّا فيما ذهب إليه، بخصوص آلة الري التي اقترح استعمالها. على اعتبار أن قرية القبذاق ومحيطها تهب فيه الرياح، في الوقت الحاضر، بشكل مسترسل تقريبًا على مدار السنة[1]. ولا شك أنها كانت كذلك خلال عصر الشاعر.

ولذلك تشتهر المنطقة بطاحوناتها الهوائية (أو الريحية). ومن بينها طاحونة أقيمت في القبذاق تخليدًا لذكرى ابن مقانا[2].

ولعمري بالبرتغاليين، والاسبانيين. فقد أخذوا اقتراح ابن مقانا على محمل الجد منذ بزوغ الأزمنة الحديثة. فشرعوا في إقامة طاحونات ريحية في جميع المناطق التي تهب فيها الرياح بانتظام. وسخروها لتوليد الطاقة الكهربائية.

وها هي اسبانيا تحتل اليوم المرتبة الثانية بعد الدنمارك من حيث نسبة الكهرباء المولد اعتمادًا على هذه الآلات. وتحتل البرتغال المرتبة الثالثة رغم صغر مساحتها.

والغريب في الأمر، أن مصنفات القرن الخامس الهجري، لم تتحدث عن الطاحونة التي اقترح ابن مقانا استعمالها. فهي تفيد بأن الناعورات، هي الآلات التي كانت أكثر استعمالاً للري في معظم أنحاء الأندلس. وقد تحدث عنها الجغرافيون في أكثر من موضع في مؤلفاتهم. كما خصها الشعراء بعدة قصائد. من بينها قصيدة عبدالملك بن سعيد المرادي الخازن التي أوردنا أبياتًا منها سابقًا[3].

ومن المفيد التذكير، بأن هذه الآلات كانت تعتمد في حركتها على قوة تدفق أو جريان المجرى المائي الذي ترفع كميات من مياهه من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى. ويفترض أن يكون صبيب مياه ذلك المجرى قويًّا ليتم دوران الناعورة بشكل

(1) انظر الموقع السالف الذكر.
(2) انظر صورتها في ملحق الكتاب.
(3) انظر الصفحة 76.





جيد. وقد يحدث أن تتباطأ عند دورانها إذا كانت الرياح تهب في اتجاه معاكس لاتجاه المجرى المائي (نهر أو وادي).

ونستطيع أن نؤكد بأن فرضية تدفق المياه بقوة لم تكن تتحقق دائمًا خلال القرن الخامس الهجري. لأن المجاري المائية كانت تستمد أكبر كمية من مياهها من التساقطات المطرية (والثلجية) التي تميزت على امتداد هذا القرن بالقلة وبعدم الانتظام، بل والانحباس أحيانًا كما تؤكد ذلك العديد من المصنفات.

فقد حدث سنة 407 هجرية أن شهد كل من المغرب والأندلس وإفريقية حالة «قحط شديد ومسغبة عامة ووباء كثير». وفق شهادة ابن أبي زرع[1]. وفي سنة 448 هجرية عمت الأندلس حالة قحط وشدة.

أشار إليها ابن بشكوال وهو يعرف بأبي محمد عبدالله بن أحمد، المعروف بابن المكوي. حيث يذكر أنه «توفي يوم الاثنين 13 جمادى الأولى سنة 448 هجرية بالصيلم المشهورة بالأندلس»[2]. و«الصيلم» كما هو معروف كلمة تطلق على السيف الحاد البتار، وعلى الداء الفتاك الذي يستأصل الناس. ويمكن أن تعني كذلك الوباء أو القحط. لأن ابن بشكوال نفسه يعود في موضع آخر عند التعريف بأبي عبدالله محمد بن عبدالله المقرئ. ليذكر بأنه توفي صبيحة يوم الجمعة تاسع محرم سنة 448 هجرية. «أيام اشتد القحط»[3].

---

(1) أبوالحسن علي بن عبدالله بن أبي زرع (توفي سنة 741هـ)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دون ذكر اسم المحقق، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 118.

(2) أبوالقاسم خلف بن خلف بن عبدالملك بن بشكوال (توفي سنة 587هـ)، كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989، الجزء الثاني، ص 422، ترجمة 612.

(3) المرجع السابق نفسه، الجزء الثالث، ص 785 – 786. وأبوعبدالله محمد بن محمد بن عبدالملك المراكشي (توفي سنة 703هـ)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1955، السفر الخامس، القسم الأول، ص 33.





ويبدو أن القحط عاود زيارة الأندلس قبيل سنة 474 هجرية. وربما يكون قد اقتصر على مملكة سرقسطة وفق ما ورد في رسالة كتبها الوزير الكاتب أبوعمر يوسف بن جعفر الباجي باسم المقتدر بن هود الذي كان يحكم سرقسطة آنذاك[1]. ثم حل القحط والشدة بمملكة إشبيلية زمن حكم المعتمد بن عباد. كما يفيد بذلك أمر مكتوب صدر عنه[2].

وكانت مملكة بطليوس هي الأخرى على موعد مع القحط والجدب في إحدى سنوات حكم المتوكل على الله بن الأفطس حسب افادة ابن خاقان[3].

وانتهى القرن الهجري الخامس بقحط ومسغبة عمتا بلاد العدوة والأندلس سنة 498 هجرية حسب إفادات ابن عذاري. ويبدو أنهما كانا شديدي الوطأة حتى «أيقن الناس بالهلاك»[4].

ولا نحتاج إلى التأكيد بأن جميع حالات القحط والجدب والشدة، كان لها تأثير بالغ على نفسية وذهنية الفلاحين والمزارعين وعموم أفراد المجتمع الذين كانوا يستشعرون قرب قيام الساعة. بل إن أعدادًا كبيرة منهم، في الحواضر وفي الأرياف، كانت تلقى فعلًا حتفها من جراء المجاعات والأوبئة التي تواكب عادة كل حالة جفاف وانعدام الأقوات. هذا فضلًا عن تعطل الإنتاج وتردي أوضاع من ينجون من مخالب الموت.

والجدير بالذكر أن الأندلس شهدت خلال القرن الخامس الهجري إلى جانب حالات القحط والجدب التي استعرضنا نماذج منها آفات طبيعية أخرى كان لها بدورها وقع كبير على العمل الزراعي وعلى الإنتاج، تمثلت في موجات

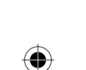
---

(1) انظر نص الرسالة في كتاب الذخيرة لابن بسام، القسم الثاني، المجلد الأول، ص 196.

(2) الأمر المكتوب (تعلمة) رفعه المعتمد إلى قواد مملكته. وورد نصه في كتاب الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الأول، ص 252 - 253.

(3) أبونصر الفتح بن خاقان، قلائد العقيان...، مصدر سبق الإحالة عليه، ص 144.

(4) انظر البيان المغرب، مصدر سبق الاحالة عليه، المجلد الثالث، ص 37.





اجتياح لأسراب الجراد، بالإضافة إلى «مجموعة جوائح» كانت تصيب المزروعات والمغروسات[1] من حين لآخر.

ومهما يكن من أمر، ففي ظل هذه الظروف الملائمة أحيانا وغير الملائمة في أحايين كثيرة كان فلاحو ومزارعو أندلس القرن الخامس الهجري (ومن بينهم ابن مقانا) يمارسون نشاطهم الزراعي منذ انطلاق الموسم الزراعي، بدءًا بقلب تربة الأرض ثم حرثها وبذرها وغراسة المغروسات، حتى نهاية الموسم بجمع المحاصيل وجني الخضراوات وثمار الأشجار. وفي جميع مراحل هذا النشاط كانوا يتعاملون مع المحيط الطبيعي بأدوات قليلة العدد ومحدودة الفعالية. وأهم تلك الأدوات على الإطلاق «المحراث» الذي كانت الأعداد المستعملة منه قليلة[2].

ولذلك كان يتم الإعتماد على الأداة المعروفة بـ«المسحاة» للقيام بمعظم العمليات التي تتطلب قلب التربة.

ولا مجال للإنكار، بأن التخفيف من وقع مختلف المؤثرات يكون ممكنًا في ظل سيادة الأمن والاستقرار. ولكن القرن الخامس الهجري شهد كما هو معروف اضطرابات سياسية وعسكرية كثيرة. احتفظت لنا النصوص، ومن بينها النصوص الشعرية، بمادة غزيرة عن مظاهرها؛ من خلال حديثها المسهب عن الدسائس وعن الحروب التي أصبحت الأندلس مسرحًا لها بعد سنة 399هـ.

وكذلك من خلال حديثها عن التجزئة السياسية التي آلت اليها البلاد. وقد واكبتها تجزئة للمجال الذي شرع المسيحيون منذ هذا التاريخ في اقتطاع أجزاء منه لحسابهم عن طريق غارات مكثفة. سرعان ما تحولت إلى عمليات ممنهجة عرفت «بحرب الاسترداد».

---

(1) لمزيد من التفاصيل بخصوص هذه الجوائح والآفات يمكن العودة إلى كتابنا، الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، ص 87 – 88.

(2) تحدثنا عن الأدوات التي كانت مستعملة في مجالي الزراعة والغراسة بالأندلس خلال القرن الخامس الهجري في مقال نشر بمجلة البادية المغربية التي تصدرها مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية، العدد الأول، سنة 2006، ص 3 – 33.





وقد سهلت مأمورية القائمين عليها وأذكت مجرياتها، النزاعات المحتدمة بين القائمين على الأمر في الممالك الطائفية التي نشأت بعد سنة 422هـ. ومن بين تلك الممالك مملكة بطليوس التي يذكر ابن مقانا اسم أحد ملوكها: أبوبكر محمد ابن عبدالله المظفر.

فقد تناقل مؤرخو وأدباء القرن الخامس الهجري أخبارًا مطولة عن الحروب التي خاضها ضد آل عباد حكام إشبيلية أكبر ممالك غرب الأندلس. وفي كل جولة من جولات تلك الحروب، كان يسقط القتلى ويقتاد الأسرى وتنتسف الزروع، ويتم تدمير المنشآت من مساكن ومستودعات وأرحي وغيرها.

وفي هذا السياق يذكر ابن حيان أن المعتضد بن عباد سيطر في إحدى جولات تلك الحروب سنة 442هـ على عدة «(...) حصون [بطلوسية] وشدها برجاله، ودمر عمارات واسعة وأفسد غلاتها وأوقع رعية المظفر في المجاعة الطويلة. وعجز هذا الأخير عن دفعه شبرًا واحدًا»[1]. وحين وضعت الحرب أوزارها بين الطرفين، انتقل المعتضد بن عباد إلى حرب الأمراء الأصاغر بغرب الأندلس (كالبكريين مثلًا). فانتصر عليهم وحاز أملاكهم. ثم وجه نظره بعد ذلك إلى الجزيرة الخضراء التي لاقت المصير نفسه[2].

وغني عن البيان، أن وقع تلك الحروب على العمل الزراعي وعلى الإنتاج، لم يكن يقف عند حد الخسائر البشرية والمادية المباشرة التي كانت تترتب عنها. وإنما كان يتجاوزها إلى مستويات أخرى إذا علمنا بأن الفلاحين والمزارعين كانوا دعامة وحطب تلك الحروب. فكانوا يستنفرون لخوضها. وكانوا يمولونها بما كان يجبى منهم من ضرائب ومغارم ومكوس. كانت تستخلص منهم بشتى ضروب العنف

---

(1) انظر نص ابن حيان عند ابن بسام في كتاب الذخيرة...، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص 25. وعند ابن عذاري في البيان المغرب، المجلد الثاني، ص 450.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، المجلد الثاني، ص 450. وص 472.





والشطط كما يوضح ذلك ابن حيان وابن حزم وابن عبدون[1]. وقد أكد ابن مقانا ما ذهبوا اليه حين قال في بيت من قصيدته العينية:

وإن أَنْجَبَتْ شَيْئا وَزَادَتْ تَوَاتَرَتْ

إلَيْهَا خَنَازِيرُ المَغَاوِرِ فِي جَمْعِ

وخلافًا لما يذهب إليه هنري بيريس الذي يؤكد بأن كلمة الخنازير الوارد ذكرها في البيت كان ابن مقانا يعني بها الحيوانات التي تحمل هذا الاسم، فإننا نعتقد أن الأمر يتعلق بجباة الضرائب الذين كانوا يشكلون في كل مملكة طابورا مجندًا من قِبَلِ القائمين على الأمر. فكانوا يشتطون في استخلاص مكوس ومغارم مختلفة من العامة التي كانت مؤلفة في معظمها من فلاحين ومزارعين.

وكان هؤلاء يمثلون في أعين القائمين على الأمر «عنصر المال ومادة الجباية، التي بها قوام السلطان، وعز السلطان وأرزاق الأجناد التي بها يُقَاتَلُ العدو ويُنْصَرُ الدين وتُحمى الحرم...»[2].

وقد شجب بعض فقهاء القرن الخامس الهجري والقرن الموالي السياسة الجبائية القائمة على الاكراه والابتزاز. فرأى ابن حزم أنها بمثابة «غارات تشن على أموال الرعية»[3].

ورأى ابن عبدون أن الأعوان المكلفين باستخلاص المكوس والمغارم «لصوص أشرار وظالمون وفسقة»[4]. وأكد الشعراء بدورهم ما ذهب اليه الفقهاء. فهذا

(1) عن ابن حيان انظر شهادته في موضوع معاناة فلاحي بلنسية زمن حكم مبارك ومظفر. أورد الشهادة ابن بسام في كتاب الذخيرة. أما شهادة ابن حزم، فقد تضمنها نص موسوم بـ«رسالة التلخيص في وجوه التخليص»، وردت ضمن رسائل إبن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980 – 1983، الجزء الثالث، ص 173 – 177. أما عن ابن عبدون، فيمكن العودة لرسالته في الحسبة التي سبقت الإحالة عليها، ص 30 – 31.

(2) وردت هذه القولة على لسان علي بن حمود صاحب مالقة وأثبتها ابن بسام في كتاب الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص 120.

(3) انظر رسالة التلخيص، ص 173.

(4) رسالة في القضاء والحسبة، ص 6.



الشاعر القاضي ابن لبال الشريشي[1] يتهم فئة من أولئك الأعوان بالجور، ويدعو أحدهم الى التوبة وتقوى الله تعالى في قوله:

[البسيط]

يـا مَـن أَتَــى يَـخـرُصُ الـزّيـتُـونَ فَـارغَـةً
وَيَـسـتَـدِلُّ عَـلَـى مَـا فَـاتَ بِـالـوَرَقِ

أتَـعـلَـمُ الـغَـيـبَ دونَ الـنّـاسِ كُـلِّـهِـمُ
لا والّـذي خَـلَـقَ الإنـسـانَ مِـن عَـلَـقِ

وَإنّمـا أَنـتَ فـيـها تَـسـتَـدِلُّ بِـهِ
كَـثَـاقِـبِ الـدُّرِّ فِـي داجٍ مِـنَ الـغَـسَـقِ

فَـتُـب إِلـى الـلَـهِ وَاحـذَر مِـن عَـوَاقِـبِـهِ
مَـن يَـركَـبِ الـبَـحـرَ لا يَـأمَـن مِـنَ الغَرَقِ[2]

****

(1) هو أبوالحسن علي بن احمد. عرف بابن لبال الشريشي. ولد ونشأ في مدينة شريش. كما تولى قضاءها. وتوفي سنة 582 هجرية. ترك عدة آثار أدبية من بينها مجموعة قصائد حققها ونشرها محمد بن شريفة في كتاب تحت عنوان: ديوان ابن لبال الشريشي. مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1996.

(2) ديوان ابن لبال الشريشي، ص 87.



خاتمة

من المؤسف حقًّا أن اسم عبدالرحمن بن مقانا الأشبوني لا يتداوله في الوطن العربي الا المهتمون بتاريخ وحضارة الأندلس في عصر الطوائف. والغريب في الأمر أن عددًا كبيرًا من ناشئة بلدة القبذاق البرتغالية ومن سكانها يرددونه كل يوم رغم أنهم لا يعرفون صاحبه. لأن مجموعة مدارس توجد بها تحمل اسمه.

وقد حاولنا أن نعيده لذاكرة التاريخ من خلال هذا الكتيب الذي تناولنا فيه، انطلاقًا من اشتغالنا في حقل البحث التاريخي، ابن مقانا الفلاح، وليس الشاعر.

ونستطيع القول استنادًا الى شهادته بأن الزراعة اكتست أهمية بالغة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري. وشكلت عصب حياة المجتمع بأكمله. وقد صدق الطغنري حين قال بأنها «قوام الحياة وقوت النفوس».

فقد كانت كذلك بالنسبة للقائمين بالأمر وبالنسبة لعامة الناس. وها هو ابن مقانا استغل موهبته في قول الشعر. عسى أن يدر عليه دخلًا محترمًا. فتجول بين الممالك. واستجدى الملوك. وأزاح أحدهم الحجاب الذي يفصل بينه وبين ابن مقانا. فاقتبس شاعرنا من ذاك الملك «نورًا»، ولكن لم يقتبس منه ثروة، وربما أضاع ما وصله به من هدايا وأعطيات. فخرج من عالم الشعر خاوي الوفاض. وعاد في نهاية المطاف إلى عمارة الأرض. فمسك المزبرة. واستعان بمن يحرث قطعة الأرض التي أضحى يحصل منها على قوته اليومي.

ويبدو أنه كان متفانيًا في خدمة تلك القطعة. ولكنها لم تكن تجود بما يثلج الصدر لأن الشروط الملائمة لممارسة الزراعة لم تكن متوفرة خلال عصره سواء على المستوى المحلي في قرية القبذاق أو على صعيد الأندلس بشكل عام.



فقد حالت دون توفرها مكونات الوسط الطبيعي (عدم جودة التربة وقلة الموارد المائية). وعدم توفر الإمكانيات التقنية الضرورية. كما أن أكثر المنتجين المباشرين من فلاحين ومزارعين، كانوا يفتقدون للأمن الداخلي في الممالك التي كانوا يقيمون بها. وكانت هذه الممالك بدورها عرضة لحرب شاملة ولابتزاز مادي ممنهج من طرف القوى المسيحية المجاورة. ولذلك كان على الفلاحين والمزارعين بذل جهود مضنية للحصول على عائدات كافية. يبدو أنهم لم يستفيدوا منها. إذ أن النصيب الأوفر منها كان يودع في بيوت مال تلك الممالك على شكل ضرائب ومغارم ومكوس نقدية وعينية كانوا ملزمين بدفعها.

ففي كل مملكة، كان جيش من الجباة والخراص يقوم باستخلاص تلك الضرائب والمكوس والمغارم عن طريق العنف والشطط.

والراجح أنها لم تكن تستثمر في مشاريع اقتصادية منتجة. فقد كانت تنهب ليقدم نصيب منها كجزية لزعماء الممالك المسيحية. وكان نصيب ثان منها ينفق في حروب غير مجدية. بينما كان نصيب ثالث يصرف في حياة الترف وتحقيق المتعة وإشباع النزوات. ومما لا شك فيه، أن قصيدة ابن مقانا العينية تفصح عن مجمل هذه القضايا. بعضها تفصح عنه صراحة وبعضها الآخر تفصح عنه ضمنًا مما يجعلها ذات قيمة توثيقية بالغة.

ولذلك لا نبالغ اذا قلنا بأن ابن مقانا نقل بتلقائية وبأمانة واقع النشاط الزراعي في الأندلس خلال عصره. وهذا ما أكده هنري بريس، وهو يتحدث عنه. فذكر في سياق ذلك الحديث أن «الشاعر الريفي الأصيل لا يستطيع أن يعبر بأفضل من هذه الأشعار البالغة البساطة (...) عن ارتباطه بمسقط رأسه، وحبه لما تنتجه الأرض من أشياء»[1].

ويرى بأن هذا الأمر يعد تقليدًا راسخًا عند جميع مثقفي شبه جزيرة ايبيريا مهما كان أصلهم. لأن الأرض التي نشأوا وترعرعوا فيها «شكلتهم بطريقة بالغة الأصالة. وصنعت منهم عمومًا فلاحين قبل أن يكونوا كتابًا أو وزراء أو جنودًا»[2].

(1) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، مرجع سبق ذكره، ص 182.
(2) المرجع السابق نفسه والصفحة نفسها.



ورغم اتفاقنا مع ما يذهب اليه هنري بريس، فإننا نعتقد أن ابن مقانا لم يكتف فقط بالتعبير عن حبه لما تنتجه الأرض. ولكنه عبر كذلك عن الواقع والظروف التي كانت تحيط بعملية إنتاج تلك الأشياء. وربما يكون قد عبر عن هذا الجانب بطريقة أفضل من مؤلفي كتب الفلاحة الذين لا نلمس صدى الواقع في مؤلفاتهم. رغم أنهم يعدون أكثر مثقفي شبه جزيرة أيبيريا ارتباطًا بالأرض.

فقد نقل بصدق صورة عن أوضاع فئات عريضة من عامة الأندلس الذين كانوا ملزمين بقضاء معظم يومهم في وضعية انحناء نحو الأرض لكسب قوتهم. ومن المؤسف أن علماء الفلاحة لم يقوموا بنقل هذه الوضعية في مصنفاتهم. كما لم يقم معظم الشعراء بنقلها في قصائدهم. ولحسن الحظ أن ابن مقانا توقف عندها. فهيهات بين ما ذكره عن نفسه، وعن القبذاق. وهو أحد ممثلي أولئك المنحنين نحو الأرض في القبذاق وفي غيرها. وما قاله ابن خفاجة عن الأندلس «جنة الخلد» وعن «أهلها»:

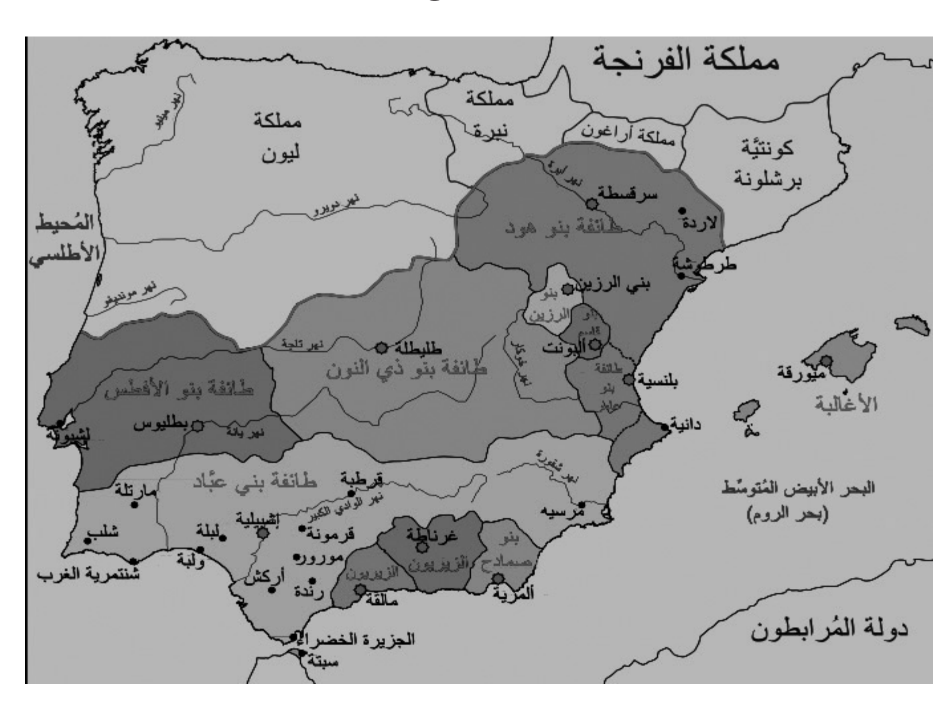
[البسيط]

يَـــا أَهـــلَ أَنــدَلُــسٍ لِــلَّـــهِ دَرُّكُـــمُ
مـــاءٌ وَظِـــلٌّ وَأَنـــهـــارٌ وَأَشـــجـــارُ
مـا جَـنَّـةُ الخُـلـدِ الا فـي دِيـارِكُـمُ
وَلَـــو تَـخَـيَّـرتُ هَـــذا كُـنـتُ أَخـتـارُ
لاتَـخـتَـشوا بَـعـدَ ذا أَن تَـدخُـلـوا سَـقـراً
فَـلَـيـسَ تُـدخَـلُ بَـعـدَ الجَـنَّـةِ الـنـارُ

ولذلك صدق الذين نعتوا ابن خفاجة «بالشاعر الجنان». ويحق أن ينعت ابن مقانا «بالشاعر الفلاح».

****

ملحــق



خريطة الممالك الطائفية نقلا عن موقع وكيبيديا (الموسوعة الشاملة)



موقع مملكة بطليوس في شبه جزيرة ايبيريا







القبذاق

موقع القبذاق في دولة البرتغال

جدول الممالك

التي طاف بينها ابن مقانا وتواريخ حكم ملوكها

أولًا: مملكة بطليوس التي ولد ونشأ بها. وعاد إليها شيخًا وتوفي بها:

قامت سنة 413 هجرية. وسقطت سنة 488 هجرية على يد المرابطين.

ملوكها:

1 – عبدالله بن محمد بن مسلمة (المنصور) (413 هـ – 437هـ).

2 – محمد بن عبدالله (المظفر) (437 هـ – 461هـ).

3 – يحي بن محمد (المنصور) (461 هـ – 464هـ).

4 – عمر بن محمد (المتوكل) (464 هـ – 488هـ).

ثانيًا: مملكة سرقسطة. رحل إليها بعد خروجه من بطليوس:

قامت سنة 403 هجرية. وسقطت سنة 503 هجرية على يد المرابطين.

ملوكها من بني تجيب:

1 – المنذر بن يحي التجيبي (المنصور) (403 هـ – 414هـ).

2 – يحي بن المنذر (المظفر) (414 هـ – 420هـ).

3 – المنذر بن يحي (معز الدولة) (420 هـ – 430هـ).

ملوكها من بني هود:

1 – سليمان بن محمد بن هود (المستعين بالله) (431 هـ – 438هـ).

2 – أحمد بن سليمان (المقتدر) (438 هـ – 474هـ).



3 – يوسف بن أحمد (المؤتمن) (474 هـ – 478هـ).

4 – أحمد بن يوسف (المستعين) (478 هـ – 503هـ).

5 – عبدالملك بن أحمد (عماد الدولة) (503 هـ – 503هـ).

ثالثًا: مملكة دانية. رحل اليها بعد مغادرته لمملكة سرقسطة:

قامت سنة 400 هجرية. وسقطت سنة 483 هجرية على يد المرابطين.

ملوكها من الفتيان العامريين:

1 – مجاهد العامري (الموفق) (400هـ – 436هـ).

2 – علي بن مجاهد (إقبال الدولة) (436 هـ – 468هـ).

ملوكها من بني هود:

1 – المقتدر بن هود (468هـ – 474هـ).

2 – المنذر بن هود (474هـ – 483هـ).

رابعًا: مملكة بلنسية. رحل إليها بعد زيارته لدانية.

قامت سنة 400 هجرية. وسقطت سنة 495 هجرية على يد المرابطين.

ملوكها من الفتيان العامريين:

1 – مبارك ومظفر (400هـ – 408هـ).

2 – لبيب العامري (408هـ – 411هـ).

3 – عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن أبي عامر (411هـ – 452هـ).

4 – عبدالملك بن عبدالعزيز (452هـ – 457هـ).

ملوكها من بني ذي النون:

1 – المأمون بن ذي النون (457هـ – 478هـ).

2 – عثمان بن أبي بكر (478هـ – 478هـ).

3 – القادر بن ذي النون (478هـ – 485هـ).

4 – القاضي بن جحاف (485هـ – 487هـ).



ملكها المسيحي القشتالي:

1 - السيد الكمبيادور (487هـ - 495هـ).

خامسًا: مملكة مالقة. رحل اليها بعد خروجه من بلنسية بنية زيارة طرطوشة التي منع من دخولها:

قامت سنة 427 هجرية. وسقطت سنة 483 هجرية على يد المرابطين.

ملوكها من بني حمود:

1 - ادريس بن علي بن حمود (المتأيد بالله) (427هـ - 431هـ).

2 - يحي بن ادريس بن علي (القائم بأمر الله) (431هـ - 431هـ).

3 - الحسن بن يحي بن علي (المستنصر بالله) (431هـ - 434هـ).

4 - ادريس بن يحي بن علي (العالي بالله) (1) (434هـ - 438هـ).

5 - محمد بن ادريس بن علي (المهدي) (438هـ - 444هـ).

6 - ادريس بن يحي بن ادريس (السامي) (444هـ - 444هـ).

7 - ادريس بن يحي بن علي (العالي بالله) (2) (444هـ - 446هـ).

8 - محمد بن ادريس بن يحي (المستعلي بالله) (446هـ - 449هـ).

ملوكها من بني زيري:

1 - باديس بن حبوس (449هـ - 456هـ).

2 - تميم بن بلقين (456هـ - 483هـ).

****






طاحونة هوائية تخلد ابن مقانا

Moinho Ibn Mucana
Poeta Arabe Lusitano
In: as Ruas de Alcabideche - 2001
ورد الشكل في موقع www. jf - alcabideche. pt



قائمة منتقاة للمصادر والمراجع المعتمدة في إنجاز الكتاب

أولا - المصادر:

1 - ابن الأبار، أبوعبدالله محمد بن عبدالله القضاعي (توفي سنة 658 هـ)، كتاب الحلة السيراء، تحقيق وتعليق حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1963، جزءان.

2 - ابن أبي زرع، أبوالحسن علي بن عبدالله الفاسي (توفي سنة 741هـ)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دون ذكر اسم المحقق، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.

3 - ابن بشكوال، أبوالقاسم خلف بن عبدالملك (توفي سنة 578هـ)، كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989، ثلاثة أجزاء.

4 - ابن بصال، أبوعبدالله محمد بن ابراهيم (توفي حوالي سنة 498هـ)، كتاب الفلاحة، تحقيق وترجمة وتعليق خوسي مياس بييكروسا ومحد عزيمان، منشورات معهد مولاي الحسن، تطوان، 1955.

5 - ابن بلقين، أبومحمد عبدالله بن باديس (توفي سنة 483هـ)، كتاب التبيان، تحقيق وتقديم وتعليق أمين توفيق الطيبي، منشورات عكاظ، الرباط، 1995.

6 - ابن الحداد، أبوعبدالله محمد بن خلف (توفي سنة 480هـ)، ديوان ابن الحداد الأندلسي، جمع وتحقيق وشرح وتقديم، يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.

7 - ابن حزم، أبومحمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (توفي سنة 456هـ)، كتاب المحلى بالآثار، تحقيق عبدالغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، الجزء السابع.

8 - ابن حزم، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980 - 1983، أربعة أجزاء.





9 - ابن حمديس، أبومحمد عبدالجبار (توفي سنة 527هـ)، ديوان ابن حمديس، تصحيح وتقديم احسان عباس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

10 - ابن حيان، أبومروان حيان بن خلف الأموي القرطبي (توفي سنة 469هـ)، المقتبس، (القطعة الخاصة بعهد الخليفة عبدالرحمن الناصر)، تحقيق بدرو شالميطا وفدريكو كورينطي، المعهد الإسباني العربي للثقافة وكلية آداب الرباط، مدريد، 1979.

11 - ابن خاقان، أبونصر الفتح بن محمد بن عبدالله (توفي سنة 529هـ)، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، تحقيق وتعليق حسن يوسف خربوش، مكتبة المنار للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، 1989.

12 - ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983.

13 - ابن الخطيب، أبوعبدالله محمد بن عبدالله (توفي سنة 776هـ)، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، القسم الثاني، تحقيق إيفاريست ليفي - بروفانسال، دار المكشوف، بيروت، 1956.



14 - ابن الخطيب، اللمحة البدرية، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980

15 - ابن خفاجة، أبوإسحاق إبراهيم بن أبي الفتح (توفي سنة 533هـ)، الديوان، تحقيق عبدالله سنده، دار المعرفة، بيروت، 2006.

16 - ابن دحية، أبوالخطاب عمر بن الحسن بن علي (توفي سنة 633هـ). المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري وحامد عبدالمجيد وأحمد أحمد بدوي، مراجعة طه حسين، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1955.

17 - ابن دراج، أبوعمر أحمد بن محمد القسطلي (توفي سنة 421هـ)، الديوان، تحقيق وتعليق محمود علي مكي، مطابع المكتب الاسلامي، دمشق، 1961.

18 - ابن رشد، أبوالوليد محمد بن أحمد القرطبي (توفي سنة 520هـ)، فتاوى ابن رشد تقديم وتحقيق وجمع وتعليق المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ثلاثة أسفار.





19 – ابن زهر، أبومروان عبدالملك (توفي سنة 557هـ)، كتاب الأغذية، حققته وقدمت له ونقلت نصه إلى الإسبانية اكسبراثيون غارسيا سونثر (Expiracion Garcia Sanchez)، منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ومعهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، 1992.

20 – ابن زيدون، أبوالوليد أحمد بن عبدالله بن غالب توفي سنة 463هـ)، ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق علي عبدالعظيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والوزيع، القاهرة، 1957.

21 – ابن سعيد، أبوالحسن علي بن موسى المغربي (توفي سنة 685هـ)، المغرب في حلى المغرب، تحقيق وتعليق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1978 – 1980، جزءان.

22 – ابن سهل، أبوالأصبغ عيسى بن عبدالله (توفي سنة 486هـ)، ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام، تحقيق يحي مراد، دار الحديث، القاهرة، 2007.

23 – ابن شهيد، أبوعامر أحمد بن عبدالملك (توفي سنة 426هـ)، ديوان ابن شهيد، جمع وتحقيق يعقوب زكي، مراجعة محمود علي مكي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

24 – ابن عباد، أبوالقاسم محمد بن عباد (توفي سنة 488هـ)، ديوان المعتمد بن عباد ملك اشبيلية، جمعه وحققه حامد عبدالمجيد وأحمد بدوي، دار الكتب المصرية، القاهرة، 2000.

25 – ابن عذاري، أبوالعباس أحمد بن محمد المراكشي (كان حيًّا سنة 712هـ)، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2013، ثلاثة أجزاء. (جزء رابع خاص بالفهارس).

26 – ابن عمار، أبوبكر محمد الأندلسي المهري (توفي سنة 477هـ)، شعر محمد بن عمار الأندلسي. قراءة وتوثيق وتعليق مصطفى الغديري، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، وجدة، 2001.

27 – ابن غالب، محمد بن أيوب الغرناطي (توفي أواخر القرن السادس الهجري)، تعليق منتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، تحقيق لطفي عبدالبديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثاني، نونبر 1955.





28 – ابن فرحون، أبوالوفاء ابراهيم بن محمد (توفي سنة 799هـ)، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، خرج أحاديثه وعلق عليه وكتب حواشيه الشيخ جمال مرعشلي، دار عالم الكتب، الرياض، 2003، جزءان.

29 – ابن القوطية، أبوبكر محمد بن عمر (توفي سنة 367هـ)، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة – بيروت، 1989.

30 – ابن الكردبوس، أبومروان عبدالملك (كان حيًّا عند أواخر القرن السادس الهجري)، تاريخ الأندلس، وهو قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مجلد 13، مدريد، 1965 – 1966.

31 – ابن اللبانة، أبوبكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي (توفي سنة 507هـ)، ديوان ابن اللبانة الداني. مجموع شعره، جمع وتحقيق، محمد مجيد السعيد، دار الراية، عمان، 2008.

32 – الادريسي، أبوعبدالله محمد بن محمد الحمودي الحسني (توفي سنة 560هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق مجموعة باحثين، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، بدون تاريخ، مجلدان.

33 – البكري، أبوعبيد الله عبدالله بن عبدالعزيز (توفي سنة 487هـ)، كتاب المسالك والممالك، تحقيق فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، تونس، 1992، جزءان.

34 – التجيبي، أبوعبدالله محمد بن أحمد بن عبدون (كان حيًّا عند أواخر القرن الخامس الهجري)، رسالة في القضاء والحسبة، حققها ونشرها إ. ليفي – بروفانسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955.

35 – الحميدي، أبوعبدالله محمد بن فتوح الأزدي (توفي سنة 488هـ)، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق وتعليق بشار عواد معروف ومحد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008.

36 – الحميري، أبوعبدالله محمد بن عبدالمنعم (توفي حوالي سنة 727هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975.





37 - الزهري، أبوعبدالله محمد بن أبي بكر (توفي بعد سنة 560هـ)، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، Bulletin d’études orientales، المجلد 21، دمشق، 1968.

38 - الشعبي المالقي، أبوالمطرف عبدالرحمن بن قاسم (توفي سنة 497هـ)، الأحكام، تقديم وتحقيق الصادق الحلوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992.

39 - الشنتريني، أبوالحسن علي ابن بسام (توفي سنة 542هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1978، ثمانية مجلدات.

40 - الطغنري، أبوعبدالله محمد بن مالك (كان حيًّا سنة 480هـ)، زهر البستان ونزهة الأذهان، مخطوط رقم 1260D، قسم المخطوطات، الخزانة العامة، الرباط.

41 - العذري، أبوالعباس أحمد بن عمر بن أنس (توفي سنة 478هـ)، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبدالعزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1965.



42 - مجهول (عاش خلال القرن الثامن الهجري)، ذكر بلاد الأندلس، تحقيق وترجمة لويس مولينا، منشورات المجلس العلى للأبحاث العلمية ومعهد ميغيل أسين، مدريد، 1983.

43 - المقري، أبوالعباس شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (توفي سنة 1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، المجلدان الأول والثاني.

ثانيا - المراجع:

أ - دراسات وأبحاث عربية أو معربة:

1 - بيريس هنري، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف. ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمته التوثيقية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، 1988.

2 - البكر خالد بن عبدالكريم بن حمود، النشاط الاقتصادي في الأندلس في عصر الإمارة (138 - 316هـ)، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض، 1993.







3 – بن عبود امحمد، التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، مطابع الشويخ «ديسبريس»، تطوان، 1983.

4 – الحجاج عادل محمد، موسوعة أعلام العرب في علوم الحيوان والنبات، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2005.

5 – جودة حسنين جودة، جغرافية أوربا الإقليمية، دار النهضة العربية، بيروت، 1980.

6 – الجوهري يسري عبدالرازق، جغرافية البحر المتوسط، دار المعارف، القاهرة، 1978.

7 – ذنون طه عبدالواحد، الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والأندلس، دار المدار الاسلامي، بيروت، 2004.

8 – خالص صلاح، إشبيلية في القرن الخامس الهجري، دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في إشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها، دار الثقافة، بيروت، 1965.

9 – شيخة جمعة، الفتن، والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر، تونس، 1994، جزءان.



10 – شيخة جمعة، عصر ابن زيدون، منشورات مؤسسة البابطين، الكويت، 2004.

11 – ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي، الجزء الثامن، عصر الدول والامارات. الأندلس، دار المعارف، القاهرة، 1989.

12 – عنان محمد عبدالله، دولة الإسلام في الأندلس: العصر الثاني، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مكتبة الخانجي، القاهرة 1988.

13 – القادري بوتشيش إبراهيم، أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة (250هـ – 316هـ)، منشورات عكاظ، الرباط، 1992.

14 – لوثينا لويس سيكو، الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء، ترجمة عدنان محمد آل طعمة، مطبعة الشام، دمشق، 1993.

15 – كمال السيد أبومصطفى، مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر للميلاد)، دراسة في مظاهر العمران والحياة الاجتماعية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993.





16 – كمال السيد أبومصطفى، بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993.

17 – نكادي يوسف، الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، مطبعة الجسور، وجدة، 2007.

ب – دراسات وأبحاث أجنبية:

1 - Guichard François, Géographie du Portugal, Paris, Masson, 1997.

2 - Jacques Rey, Recherches géologiques sur le Crétacé in - férieur de l'Estramadura (Portugal) , Serviços Geologicos de Portugal, Lisboa, 2010,

3 - Palazón Julio Navarro, Excavaciones arqueológicas en la Cuidad de Murcia durante 1984, Servicio Regional de Patri - monio Historico, Murcia, 1987.



ثالثًا - المقالات:

1 – آل طعمة عدنان محمد أحمد، «ابن مقانا الأشبوني شاعر الدولة الحمودية في الأندلس»، مجلة أهل البيت عليهم السلام، العدد السادس، سنة 2003، ص 242 – 261.

2 – الجويعد طلال، «عبدالرحمن بن مقانا الأشبوني شاعر أندلسي مجيد سقط من ذاكرة التاريخ»، مجلة البيان الكويتية، يونيو 2013، ص 89 – 100.

3 – السعيد محمد مجيد، «ابن بقي القرطبي. حياته وشعره»، مجلة المورد، فبراير 1978، ص 125 – 152.

****





المحتوى

- **التصدير، أ. عبدالعزيز سعود البابطين** 3
- **توطئة** 7
- **مقدمة** 9

فصل تمهيدي علاقة شعراء أندلس القرن الخامس الهجري بالنشاط الزراعي

- علاقة شعراء أندلس القرن الخامس الهجري بالنشاط الزراعي 13
  - أولًا: علاقة الشعراء الملوك بالنشاط الزراعي 21
  - ثانيًا: علاقة شعراء البلاطات بالنشاط الزراعي 24
  - ثالثًا: علاقة شعراء «المرتبات» بالنشاط الزراعي 26
  - رابعًا: علاقة الشعراء الجوالين بالنشاط الزراعي 28

الفصل الأول في التعريف بابن مقانا الأشبوني وسياق القصيدة

1 – في التعريف بابن مقانا 33
2 – عن القبذاق وغرب الأندلس 41
3 – سياق القصيدة 43

الفصل الثاني خصائص الزراعة وأهميتها في القبذاق

- خصائص الزراعة وأهميتها في القبذاق وفي سائر أقاليم الأندلس 55
  1 – أشكال الاستغلاليات 56
  2 – نظم استثمار الاستغلاليات 63
  3 – بعض أساليب وتقنيات العمل الزراعي 65
  4 – التوزيع الجغرافي للمحاصيل الزراعية 73
  5 – العوامل المؤثرة في العمل الزراعي والإنتاج 83
- خاتمة 95
- ملحق 98
- قائمة المصادر والمراجع 104
- المحتوى 111

